الحب
مرَّ من هنا

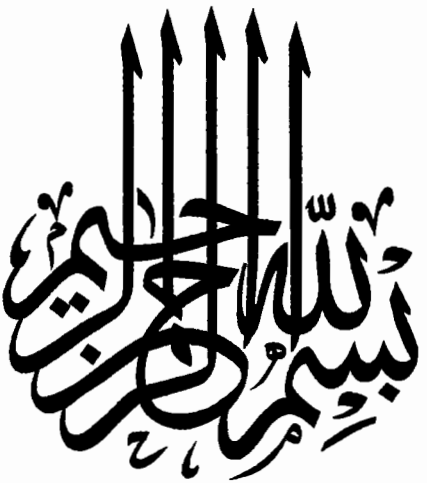
بسم الله الرحمن الرحيم

عبد الرزاق كيلو

الحبُّ مرَّ من هنا

« سوريّتنا »

رواية

دار المكتبي

الطبعة الأولى
2020 - 1441

محفوظة
جميع الحقوق

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه
بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير
أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان
بالحاسبات الإلكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن
مكتوب من دار المكتبي.

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق – الشارقة – القاهرة
دمشق هاتف: 00963112248433 فاكس: 00963112248432 ص.ب: 31426
الشارقة هاتف: 0097165512262 فاكس: 0097165512264 ص.ب: 3309
Email: almaktabi@gmail.com
www.almaktabi.com

كلمة لابدّ منها

ليعلمِ القارىء العزيز ، أنَّ أحداث هذه الرَّواية ووقائعها مستوحاة من رحم الواقع ، وليست ضرباً من الخيال ، وإنّما تتوافر براهينها وأدلَّتها من الشّهود العيان الّذين عاشوها بمرارةٍ وألمٍ . . . !

* * *

« أنواءٌ وغيومٌ »

بعد أعوامٍ مرّت من عمر الحرب الهوجاء ، داهمه العقد الخامس من عمرهِ ، يحملُ في طيَّاته الأنينَ والشّكوىٰ . . . !

فالحزن . . . بنىٰ من جديدٍ عشّاً أسودَ له في قلبه . . فهو بالطَّبع لم يَعُدْ شابًّا فتيًّا قادراً على الإبحار ، وتحمّل الأنواء ، أو الضُّغوط الحياتيّة .

ثمَّة غيومٌ كامدةٌ تحجب سماء السّعادة في أعالي نفسه ، بينما أصداءٌ حزينةٌ تتردّد في أعماقه . . . يزيدها ألماً وأنيناً القلق والهواجس الَّتي تمضي بخيالاته وتصوراته إلى مكانٍ مجهولٍ في زوايا عقله . .

جميع المحيطين به . . إخوته . . . أولاده . . . أصدقاؤه . . . جيرانه . . . حتَّى المقربون إليه الَّذين يعرفون حكاياته البسيطة منها ، كانوا يعتقدون أنَّ العزيمة إنَّما أضَنت ظهرها . . . ويوشك أنْ يُلقي بعصاه جانباً ، من أقرب خبر فاجع عنها . . . !

رغم ذلك كانوا يؤكِّدون أنَّ الرَّجل غير خالٍ من عناية إلهيّةٍ تلهمه

الصَّبر... وتحمُّل المشاق ، في جوٍّ معاشيٍّ محفوفٍ بالغلاء الفاحش لا يطيق مكابدَته وتحمُّل أعبائه مَنْ كان مثل وضعه.. !

كيف يبحر في كنف الحياة وهو يقود سفينةً يحمل على متنها زوجتين وستّة أولادٍ.. ! في خضّم بحرٍ لجيٍّ محفوف بالمخاطر ، تتلاطم فيه الأمواج.. أمواج الغلاء العاتية... يميناً ويساراً ، رافعاً كفَّيه راجياً العون من الله الذي شاء أن يمتحن أهلِ الأرض... !

شاكياً إليه شدة حرِّ الشَّتاء ، وبلل الصيف الملوَّث بوباء الحرب المسعورة... دائماً في رأسه يحسُّ طنيناً ، وكأن مجموعةً من الزّنابير بَنَتْ لها خليّة فيه... بينما صفير الطّلبات المستعرة ، وغارات كلمات زوجتيه تعصف في أذنيه بين حين وآخر... كان كلامهما معه دوماً عكراً للغاية لا يخلو من مكر النّساء وكيدهنّ ـ إنّ كيدهنّ عظيم ـ وهما تحاولان استنطاق ما يجول في قلبه... ومعرفة ما يدور في خلده... !

كان لا يريانه إلاّ عاقداً حاجبيه ، مُطرقاً رأسه نحو الأرض ، يغطُّ في شرودٍ عميقٍ ، مثيرٍ للتساؤل والحذر.. ! كان يقلقهما هذا الحزن الّذي يلوح خطفاً بين عينيه ، وتتوجَّسان خيفةً من انزياح اهتمامه بهما إلى جانبٍ متهادٍ في قلبه.. طبعاً لا تفارق شفتيه العبارة الّتي يردّدها دائماً بعد سنواتٍ عاشها في غضون هذه الحرب الكونيّة

المستعرة : يا الله ما هذا الوضع الّذي وصلنا إليه ؟ . . أين كنّا . . . وأين صرنا . . . ؟!

كان يعتقد أنَّ الحياة . . . عادت أشبه بشجرة ، أنشب فيها المنشار مخالبه . . . وما يزال يجزُّ في منتصفها واحداً من أكبر أغصانها سمكاً وطولاً . . . فباتت الشّجرة تهتّز وترتجف هلعاً ، وتطلب الرحمة من المنشار الّذي لا يلين ولا يرقّ قلبه لحالها . . ! ؟

صنّاع الحرب . . . هؤلاء القوم المجوس ، استوطنوا في جذور حياتنا ، وما يكاد ينبت لنا فيها غصنٌ صغيرٌ ، وأوراقٌ رقيقةٌ إلاّ أعملوا فيها سيوفهم وحربهم . . . !

حتّى « هي » بيت القصيد في فكره واهتمامه ، قد غرقت هي الأخرى في أتون الحرب الهوجاء . . . تعاني تحت الحصار المفروض عليها الأمرّين ؟! . .

فها هي الحرب تفرّق بينهما من جديدٍ . . . وها هي الحياة باتت تقدّم لهما هماً يضاهي همهما الآخر . . .

بين الحين والآخر كان يفسح المجال لدموعه كي يزيح الألم الخانق عن صدره ! ويحاول الفرار من أجواء عاطفية ، ويقفز خلف السّياج إلى ردهة همومه المعيشيّة ! . .

ثمّة رجالٌ مرضىٰ أخلاقياً يعبثون بحياتنا . . ويعيثون في الأرض فساداً ، ويُدنّسون أمنها وسلامها ، مُستغلّين ظروف الحرب والأزمة

لتسويق فحولتهم في الخراب الأخلاقي ، والفساد الإداريّ .

بالأمس ، كادَ أن يتحوّل شجار مع أحدهم إلى عراكٍ بالأيدي بعد أَنْ استَنْفَدَ صبره عاملُ الصِّيانة الجَشِعُ ، المسؤول عن صيانة الخطوط الهاتفيَّة في الحيّ الّذي يقطن فيه . . هو غريبٌ عن المدينةَ ، نازحٌ من المناطق السّاخنة كما يقولون ، وجدها فرصة لاسْتمراءِ الفساد ، واستدرار الرِّشوة ، وأكل أموال النَّاس بالباطل ، يحاول بين الحين والآخر العبث بالخطوط الهاتفيَّة ، ليفرض الأتاوة على أصحابها مُتذرِّعاً بأن إصلاحها يحتاج إلى جهدٍ كبير . . !

وبالمصادفة . . . وقع على سعيدِ الدّور هذه المرَّة ، حيث انقطع خطُّه الهاتفي فجأةً عندما كان يجري مكالمة . . ! حاول تسجيل شكوىٰ متَّصلا على الرَّقم /١٠٠/ شكاوىٰ . . . ولكن هيهات . . . هيهات . . !

حتماً علينا إذا وقعنا في هذه المشكلة أن نتراكض كالكلاب الملهوفة وراء عامل الصِّيانة ، وننهال عليه بالتَّوسلات ، ونُسمعه عبارات الرجاء المتكررة ، واعدين إيّاه بالأتاوة المفروضة علينا كي يقوم بإصلاح الخطِّ الهاتفي . . . هذا إن لم يتواقح ويأمر بالمبلغ المطلوب سلفاً . . . وإلاَّ . . . فلا إصلاح ! . . .

وقِسْ على ذلك عمّال بقيَّة الخدمات الأخرىٰ . . عمَّال شركة المياه وشركة الكهرباء . . . عدوىٰ الفساد استشرت في أوصال

الدّوائر الحكوميّة ، من غير وازعٍ ولا ضمير . . . ! وخاصة من بعد حلول هذه الأزمة الّتي تمرّ بها البلاد ، ويتطوَّح منها العباد ! . . .

لا أريد تحطيم معنوياتك أيُّها المواطن المتأهّب لغدٍ مشرقٍ واعدٍ ، . . . لا . . . لا أريد ذلك أبداً . . . وإنَّما أتكلم عمَّا يحدث بواقعيّةٍ وصراحةٍ ، بعد أنَّ أصبح لسان الحال يهمسُ في أُذنيكُ المصغيتين المرهفتين للسَّمع : إصبرْ إنْ أردت العيش بكرامة . . أو مُتْ إنْ أردت التخلّص بجنونٍ . . . أو اِنْفَجِرْ همّاً وحنقاً إنْ رمت العيش بأمانٍ بعيداً عن المنغصّات الّتي لا تحسب لها حساباً ، وتباغتك فجأةً أينما كنت ، ولو كنت على متن مركبةٍ فضائيّة ! . .

غدا مزاج سعيدٍ عكراً للغاية ، فيما أثقلت عليه خواطرُ تعيسة بعد مُضيّ وقتٍ كبيرٍ من مجريات هذه الحرب الكونيَّة الّتي تجتاح البلد . . ! والتي أثارت بدورها مختلف الأقاويل والتآويل عند النَّاس . . !

أمَّا بالنِّسبة لسعيدٍ . . فإن داعش الأنجاس قد أفسدوا عليه استمراريَّة حبِّه في الحياة . . . تجَّار الأزمة الأوغاد يحاصرون عيشه بالهموم . . . ! الباعة في الأسواق الّذين هم الطَّابور الخامس الّذي يسيرُ وراء داعش وغيرِها من العصابات . . . كلَّ صباحٍ يفسدون على النَّاس يومهم الّذي يبدؤونه بديعاً مُسرّاً رائعاً .

سعيد الّذي تعوّد الإمساك عن الكلام في مثل هذه الظروف ،

خوفاً من تفسيرٍ مغلوطٍ أو اتهام مُتعمّدٍ في كثيرٍ من الأحيان.. ! فيجّره إلى مصيرٍ مجهولٍ ، يجهل بدايته ونهايته !.. فما أكثر الأشخاص الَّذين يضيعون بين الأرجل ، أو في شَربة ماء... أو كما يقول المثل الشَّعبيّ : كالبولة في الحمَّام.

فكان يتعمَّد عدم الخوض في كلامه مع النَّاس في ظروف الأزمة... فالمخبرون يعلمون جيداً أنَّ الكلمة أشدَّ فتكاً بالمفسدين من الرَّصاص أحياناً ولهذا طالت أعناقهم ، وامتطّت آذانهم حتّىٰ باتوا يسمعون صوت تدحرج النَّجوم في السَّماءِ.. لكنَّهم كانوا يعرفون سعيداً جيَّداً بأنّه مصارعٌ حاذقٌ بالكلام ، يمكن معرفته من مسافاتٍ بعيدةٍ ، ويعرفون عن مواقفه غير الطَّبيعيَّة الكثَّير من العجائب الغريبة.. ويدركون عن حياته الخاصَّةِ شيئاً ما غير مألوف...

فقد سرت عنه إشاعاتٌ مخيفةٌ ، فقد قيل عنه : أنَّه ليس شخصاً عاديّاً.. ! بل تحرسه قوىٰ عليا... بل أكَّدوا أنَّ أحد الأولياء الصَّالحين يقف في حياته بالتأكيد.. !

بينما هو إنسانٌ عاديٌّ... بسيطٌ.. مُهابٌ.. يكره الثَّرثرة والكلام الفارغ... مثقّفٌ... شاعرٌ... كاتبٌ... لبيبٌ وحاذقٌ .

ولكن... رغم ذلك كلَّه... ما كان بإمكان غريمه أنْ يقف في

وجهه عندما تجمعهما حلبة الكلام.. خاصَّة في ظروف الأزمة والحرب الهوجاء ، ظروف الإصطياد في الماء العكر... ! فكما أنَّ الحرب واقعةٌ على الَّذين يخوضونها بالسَّلاح والعتاد.. فهي مصَيبةٌ في فصولها الكُبرى على المواطنين المدنيِّين بِوَقعٍ أعظم... فما معنىٰ ألا يكفي الموظف راتبُه إلا أسبوعاً واحداً من الشهر فقط وما معنىٰ.. أنَّ المواطن غدا يتطوَّح كالسَّكران من ضائقات العيش ليحيا بكرامةٍ.. ما تفسير.. أنَّ الأنانيِّين يملؤون أمكنة المحرومين والفقراء ، فلا يتركون لهم مكاناً في الحياة.. ؟ حتَّى الموتى في قبورهم كانوا يستغيثون مُسْتَصْرخين يسترحمون الله الجبَّار الأعلىٰ لأجل الأحياء.. فقد حكىٰ له منذ فترةٍ حفَّار قبور يعمل في المقبرة القريبةِ من الحيِّ ، أنَّه سمع من باطن أحد القبور المفتوحة صوت مَيِّتٍ يخاطبه قائلاً : أنتم... يا إخوتنا الأحياء كيف تعيشون حياتكم خَلواً من الضَّمير ؟!.. ردَّ عليه الحفَّار : الواحد منَّا يعيش كذبابة في ذيل حصانٍ ـ كما قال بعضهم ـ لا زمان ولا مكان لنا في هذه الحياة الدَّنيا... إذا أردنا أن نعيش كالحيوانات الأليفة المدلَّلة يكبلّنا الغلاء المُسْتعر... وإذا أردنا أنْ نموت مثلكم لا نستطيع.. ! لا يدعونك تموت أو تعيش... كنّا بشراً فَصِرنا غَنَماً يُقادُ بعصا (أن) : المُضمرة ، والتقدير : جوِّعه لتقوده ، أو جوِّع كلبك يلحقك .

بعد أن سمع سعيد كلام الحفَّار ظنَّه يمزح أو يخرِّف ، فأقسم له مؤكِّداً أنَّه سمع هذا الكلام من جوف القبر.. !

عاد سعيد يُتمتم بلسانه منضوياً تحت ستائر حزنه : مجنونٌ كلُّ مَنْ يظنُّ أو يعتقد ، أنَّه بقي في هذا الوطن شيءٌ من إنسانيّة أو ضميرٍ ، نحن نعاني من موتٍ غير حضاريٍّ ونحن أحياء . .

في البلدان المتحضّرة أخلاقياً ، والّتي أعظم ما فيها كرامة الإنسان . . لو سقط حيوانٌ يتألّم وسط الطّريق ، يهبُّون بسرعةٍ ، ويأخذونه إلى مركز الرّعاية . والنّاس هنا يُقرضون بمقاريض من نيران الغلاء المتصاعد كلَّ يومٍ ولا يهتزُّ لأحدهم ـ المسؤولون الفاسدون ـ عرقٌ من جانب ضميره ! . .

المواطن العاديّ الّذي رتبته نجمة أو نجمتين تحوّل هنا إلى شبه حيوانٍ . . يعيش ليأكل . . باحثاً كالقطط عن قوته وقوت عياله . . أمرٌ غريبٌ يدعو إلى أخذ الحيطة والحذر . . . ! يحتاج إلى وقفاتٍ متأنيةٍ يُعاد فيها ترتيب المعاش ، وختم أحزان النّاس وآلامهم بالشّمع الأحمر .

ظنَّ سعيدٍ . . أنّه وحده الّذي يشعر هكذا . . . تبيَّن له عن كثبٍ أن غالبية المقهورين يبادلونه شعوره هذا . . ! غير أنَّه يختلف عنهم بشعورٍ آخرٍ . . شعورٍ أليمٍ عميقٍ . . . حفر في نفسه أخاديدَ وسبلاً غير مأمولة من قبل . . . نيران الشّوق والحنين تحزّ في نفسه كحدِّ السّيف أحياناً ! . .

شعورٌ بالحبّ الأسير يملؤ عليه أقطار نفسه حتّى النّخاع ، شعورٌ

بالحبّ المحاط بسياجاتٍ متتاليةٍ منيعةٍ لا يستطيع تجاوزها يملؤ إحساسه ، يتألّم كعصفورٍ جريحٍ في قفصه وقد غاب عنه صاحبه . . .

هو . . هنا . . أسير العيش الّذي يغلي تحت مرجل الغلاء والعوز ، وقلّة تدبير الحيل والإلتفاف على الحياة . . .

هي . . هناك . . أسيرةٌ تحت مناجم الحزن المسيّج بجرائم داعش الأنجاس .

كان كلُّ يومٍ يمرّ في حياته يزداد فيه خوفاً وهلعاً ، وأنيناً وشكوىً خاصَّةً بعد انقطاع أخبارها عنه . . هي اتّجهت في تقديره نحو مصير مجهولٍ قلبه المتيّم بحبها يمضي اللّيل والنّهار ضمن دائرةٍ حالكة الظّلام وكأنّها مرسومةً بيد شيطانٍ رجيمٍ ! . .

وأنّى للّيل أن ينجلي ، وأنّى للنّهار أن ينبلج ! . . .

* * *

« اللؤلؤ يكمن في القاع »

بعد مضيّ زمنٍ طويلٍ ، ظلَّ سعيد يعيش في حمأة نهاراتٍ ثقيلةٍ فرضت الهموم والأحزان ، ظلماتها ممتدَّةٌ إلى لياليه الغارقة بالدَّموع والأنين ، فتسري نفسه إلى جوف ذاكرته مسترجعاً طيوب ذكرياته معها . . طيفها الأنثوي الممتلىء بالفتنةِ لا يفارقه أبداً . . .

على حينٍ من غمرة الحبِّ المفعم باللهفة إلى لقائها ، بدأ يهاتفها خيالاً ويبثّها شكواه داخل مرآة عقله الباطن . . .

حبيبتي . . اسمعيني جيّداً ، سأقول لك قولاً مأثوراً من وحي الدَّار الآخرة . . الولادة سهلةٌ يا حبيبتي . . . لكنَّ الموت صعبٌ . . صعبٌ جدَّاً . . المولود يولد قبل الآخرين . . لكنَّ الميّت يموت وحده . . . إنْ كنتِ ما تزالينَ حيَّةً فأغدقي عليَّ بالحياة . . . اقتربي منّي واجعلي صدرك يلامس صدري الَّذي يهفو إلى دفئك . . . دعي شفتيك تلثمان شفتيَّ المتعطّشتان إلى شهدك الشَّهي . . . ورمشيك المطبقين حناناً واشتهاءً يلامسان رمشيَّ الهائمين في معراج اللَّذة المتصاعدة في محار العشق والهيام . . ما أجمله من لقاءٍ يتجسَّد فيه الحبَّ بأبهىٰ حلله بين عاشِقَين يلتقيان روحاً وجسداً . . فتجلي عليَّ

يا حبيبتي كفراشةٍ بأجنحةٍ بارقة الألوان تحت أشعّة الشّمس المُحتفية بطيفك الملائكي. . . فإن كنت حيَّة فخذيني إليكِ ، واعبرُي بي محيط الحزن. . . اطلبي من الله دوماً أن يأتي بي إليك. . لا أن يأتي بك إلي ، لأنَّ هذه الحياة الَّتي كرهتها لنفسي لا أرضاها لحبِّك المعشعش في قلبي. . .

حبيبتي. . . إنَّي أتكلم لك عني أحزاني ، عن ضيقي ، عن غضبي. . . أنت تعرفين جيِّداً. . . حياتي تزدهي بنبض حبِّك الَّذي يخفِّف عنّي غلواء الحياة ويحقِّق لي ارتياحاً ، رغم صعوبة العيش الَّتي تزداد عليَّ ـ وعلى الجميع ـ يوماً بعد يوم. . . فالنَّاس هنا يضحكون عندما يتوجَّب عليهم البكاء. . . ويبكون عندما يتوجَّب عليهم الضَّحك. . . حكايتي معك مؤلمة. . جِدُّ مؤلمةً حتَّى أنّي أمسك نفسي بصعوبةٍ أمامهم عن البكاء. . ولكنَّهم إذا استمعوا يضحكون. . . يسخرون. . جديَّة الحبّ وعذريّته غابت عن حياتهم ، فعواطفهم غارقةً في الأنانيّة وحبِّ الذَّات ، وبالمصالح الرخصية فتجلَّي عليّ كرَّةً أخرىٰ كعذراءٍ تتجلّى من أجنَّة الزَّهر حتَّى يقولوا :

ثمة امرأةٌ جميلةٌ مرَّت من هنا. . . !

ليهتفوا من صميم حناجرهم : ثمّة حبٌّ مرَّ من هنا. . . بين عاشِقَين عاشقٍ مأخوذٍ بأيّام العيش الجائر. . . وعاشقةٍ مجهولةِ القرار

مغلوبَةٍ على أمرها ، تطوّقها أنياب المجرمين الغواشم . . . !

كان يحسّ حقيقةً . . . أنَّ الحياة فوق رأسه تعجّ بالنّيران اللاّهبة فالقصف اليوميّ المتكرّر للغلاء يقضُّ مضاجع النّاس ، ويحرق أنفاسهم ، فباتوا قاب قوسين أو أدنىٰ ، أن يخرجوا إلى قوارع الطُّرق هاتفين بملءِ حناجرهم : يحيا الغلاء . . . تحيا جهنّم الحمراء . . . وجد في نفسه أنَّه من الخطورة بمكانٍ الاستجابة لهذه التّداعيات فعاد إلى مانالوجه الدّاخلي الخياليّ . . . مستحضراً من أعلىٰ درجات التّذكر طيفَ الحبيبة مريم . . . مأخوذٌ بحضورها البَهي من تلافيف ذاكرته الحيَّة النّابضة بحبّها . . . أيَّتها الحبيبة السَّاجية في محراب الرَّوح تماماً . . . يسعدني أن تكوني بجانبي لنؤدّي معاً صلوات الحزنِ والكبرياء ، يسعدني أنْ تتماهي في روحي في علياء جنّة الفردوس المعذَّب ، لديَّ شهوةٌ عارمةٌ للنُّزوح عن هذه الدُّنيا ، واللُّجوء إلى ركنٍ آمنٍ ولو كان على متن الرّيح ، أو في خبايا الأرض الَّتي خلقها اللهَ واسعةً لكلِّ شيءٍ ، وضيّقةً فقط على آمال النَّاس وأحلامهم . . . !

هكذا نحن هنا في قضايا كهذه . . ! فكيف أنتم هناك . . ؟ نحن مثلكم . . ما هي أخباركم ؟ . . هل الماء مقطوعةٌ عندكم حتَّى الآن ؟ . . هل عندكم كما عندنا الكهرباء تُقطع أربعَ . . خمسَ . . مرّاتٍ في اليوم ، وضوء الحزن والكآبة ينوّر لياليكم بنورٍ يرفّ

العين ؟ وهل ما يزال المسؤولون الحكوميّون يعطونكم وعداً جازماً أن سعر المادَّة الفلانيَّة لن ترتفع ؟! . . . وهم بذلك يعطون إشارة يَسْتَبشر بها تجّار الأزمة في الأسواق ؟ . . ليجمعوا البضائع الّتي تحتاجونها ، ويكسبوا فيها المليارات ؟! . .

حبيبتي الماثلة بين عينيَّ ، والمتجليَّة على رغيف عيشي الّذي أضناه الغشُّ ، أضناني الّذي بالشَّوق أضناكِ ، هلعي عليك من غطرسة الوباء القَسريِّ القادم من أروقةِ المخابرات الأمريكيَّة يزداد يوماً بعد يومٍ ، وخوفي عليكِ من الكلاب المسعورة المدرّبة في مرابع الحقد الغربيِّ يتقاذف في نفسي براكيناً وحِمماً .

نحن هنا . . . تعطّل محرّك إحساسنا بالأشياء ، وتوقفت ميكانيكياً أعصابنا عن الدَّوران بين الفصول الأربعة . . ! نرى أنفسنا في ثلاّجة يصبح كلُّ شيءٍ فيها متجمِّداً شتاءً ، ونعيش في قبرٍ يشتعل حرَّاً صيفاً . . . !

ما أريدك أنْ تفهميه ، أنَّ المحيط الجهنميَّ الجديد ، لم يؤثّر في قلبي تجاهك مطلقاً . . . بل جعلني أتعلَّق بكِ أكثر من ذي قبل . . ! وزادني صمتاً أعمق من الصَّمت المفروض علينا من زبانية جهنم . صدى حبّك دوماً يزرعني قرب الأزهار وقرب العشب المتألّق بالاخضرار في حدائق الشوق إليك . . . دوماً أهيم فوق سطوح الذّكريات فأرىٰ جسدك العاري من كلّ شيءٍ إلا من الحبّ والرَّغبة والاشتياق .

أملٌ يتناهض من داخل نفسي فأتجاسر على ألمي وحزني ، فتهبّ من غصونه رائحتُك الأنثويَّة الشّهيَّة ، وتشتعل في نفسي الرّغبة للإنضواء في فيافي جسدك المرتعش الرّاغب في اللّقاء بعيداً عن حياء اللَّيل ، ووقاحة النَّهار . . !

لا يهمنّي أبداً أنَّ جهنّم أقلَّ ازدحاماً وصخباً من ازدحام النَّيران وضجيج الشَّوق في قلبي وفي شراييني . . !

حبيبتاه . . . أخيراً لا آخراً . . أما زلت تذكرين تلك اللَّيلة الَّتي هبط فيها وحي الحبّ مُبشّراً بغرامِ الهيام ، وبعشق الشّوق . . كاد بعدها للحبِّ أن يكون نبيّاً . . ولكن لا نبيَّ للحب بعد اللَّحظة الأولى لإنتفاض الوجد على مرافىءِ العيون ، وعناق النّظرة للنَّظرة . . !

كان سعيد يؤمن أشدَّ الإيمان ببعضِ الكلمات الَّتي تشبه قضيته الكبرىٰ . . كتبها يوماً في إحدى مقالاته الصَّحفيَّة : « أخا حزنٍ لا تبتئس إنْ رأيت طالحاً يعلو صالحاً . . فحتَّى النَّهر تعلو القاذورات سطحه أحياناً . . . بينما اللؤلؤ يكمن في القاع . . .

أجل . . . اللؤلؤ يكمن في القاع . . . عبارةٌ تحمل في طيّاتها الأمل والتفاؤل . . يردِّدها كلَّما جافاه القدر في أمرٍ يرغب فيه . . . !

فإن كانت الحياة حاضراً فإن المنغصات تطفو علىٰ سطحها وتسير في وتيرةٍ لا تحمد عقباها في المستقبل القريب . . أما الماضي فإن الحياة كانت فيه أحلىٰ وأبهىٰ في كل شيءٍ . . ! في قاع تكمن في

ذاكرته الخيالات والصُّور المشرقة بطعمها وبريقها العظيمين . . !

أيَّام السَّبعينيات والثَّمانينيات ، ثمّ في العقد الأخير من القرن المنصرم طُبعت في وجدانه ذكرياتٌ لا تنالُ منها الأيّام ، ولا ينساق الزَّمن في هذا النَّفق المظلم الخانق ، أو تنحرف الحياة في دهليز الدَّم والنَّار . . . ! طبعاً . . من الماضي التليد تنسج الأمم والجماعات وشاح المستقبل المزدان بالعزِّ والقوة . . . في الحقيقة لسنا « ماضويِّين » نجعل من الماضي نقطة البداية أو سلّم الإرتكاز . . ! وإنَّما هي حقيقةٌ متعارفٌ عليها عند سائر الشَّعوب : تجارِب الماضي تمنح الحاضر هويَّته ونهضته وخصوصيّته . . معادلةٌ تستغرق الحدَّين واقعاً ومنطقاً حتَّى على صعيد اللُّغة نردّ الكلمة لمعرفة مبناها وأساسها إلى جذرها اللُّغوي مروراً بالفعل الماضي بدايةً . . . أخلاقياً وإنسانيَّاً نتعرف على أصالة الرّجال من خلال ماضي أفعالهم وأعمالهم ، أو ماضي آبائهم وأجدادهم . . . ! الماضي حاضرٌ في الزَّمان والمكان من أطر المستقبل فعبثاً نحاول استشراف المستقبل مع فكِّ ارتباطنا مع الماضي العميق في الأحقاب الأخيرة من العقود المنصرمة من القرن الفائت . . . القرن العشرين . . كانت حياتنا أزهى وأينع بالخيرات . . ! حتَّى إطلالة الصَّباح كان لها رونقها الَّذي لا يُنسى . . . عيني على زمن الألفة والودّ والتَّسامح . . إنَّها المحبَّة ترسل شعاعها فيؤلِّف بين القلوب . . . إنَّه زمن العطاء والخير . . وانسجام السَّماء مع الأرض بركةً ورحمةً . . وأيُّ رجلٍ كان ذاك الَّذي

قال يوماً : الوطنُ غالٍ . . الوطن عزيزٌ . . الوطن شامخٌ . . الوطن صامدٌ . . . لأنَّ الوطن هوذاتنا . . ! كان كالسّنديان الّذي لا ينحني في وجه الرّياح العاتيةِ . . جذوره ضاربةً في الأرض . . . عزيزةٌ . . !

كان يُعلي من كرامة الإنسان لأنَّه غاية الوجود ومنطلق الحياة .

يتذكّر سعيد حينها كيف جاد عليه القدر المعطاء بالحبّ . . ! يتذكّر كيف انخرط في سكّة العاشقين الولِهين الّذين يُخفِضون جناحهم لحضرة الحبّ عطفاً وحنيناً ، وهو لم يزل في السّابعة عشر من عمره عندما طرقت مريم باب قلبه مقتحمةً بقوّةِ عقله وفؤاده ، رغم تحاشيه من قبلُ الوقوع في فخّ الغرام .

مريم . . اسم يحمل في ثناياه جميع معاني الحياء الأنثويّ الّذي فطره الله تعالىٰ في خلقة حواء . . .

في البداية اعتاد أن يراها كلّ يومٍ ، غدواً ورواحاً من بيتها إلى مدرستها ، ومن مدرستها إلى بيتها . . . يعجبه منظرها من بعيدٍ . . . وربّما أمعن النَّظر إليها مراتٍ عديدةٍ ، خاصَّة وهي مرتديةٌ بزَّتها المدرسيَّة الّتي كان يطلق عليها « بزَّةَ الفتوَّة » كانت صورتها وطلَّتها ببزّتها تسحره حيث تبدو من خلالها تفاصيل الجسد الأنثويّ من العنق وحتَّى القدمين ، أو عندما كانت تذهب عصراً إلى المعهد مرتديةً فستانها الأسود المزركش من أطرافه ، والمطرّز من جنباته ، لا يبدو منه إلا عنقها الممتلىءُ المكنوز ، يُشعّ بالأنوثة أشدّ مِنَ الثّلج بياضاً

وبريقاً . . . وزنداها إلى المرفق وقد التّفا التفافاً بديعاً جذّاباً . . !

كانت الابتسامة لا تفارق وجهها الصَّبوح المليح . . في محيّاها الحياة والنَّشاط ، تتوافر فيها كلّ معطيات الفتنة الأنثويّة . . تأخذ بلبّ الشَّابّ المتأهب للحبّ والحياة . . طويلة القامة على اعتدالٍ ورشاقةٍ بيضاء . . . ريَّانة كريحانة . . غضّة طريّة . . . حادَّة البصر مع وداعةٍ ورِقَّةٍ . . ويتجلّى إلى جانب ذلك لطفٌ أنثويٌّ يسحر الألباب .

شاهدها مرَّةً على موقف الباص بفستانها الأسود المزركش وقد انفتح من أعلى الصدر . . فبدا عنقها وفيه من مظاهر القوَّة والصَّحة بامتلائه واستدارته . . وصفّفت شعرها الكستنائيّ الجميل على هيئة ضفيرتين مستطيلتين أرسلتهما إلى صدرها من جانب العنق ، وبلغتا إلى ما تحت الخَصْر . . ! فاسترسل بالإمعان إليها فأحسّت باهتمامه بها ، وطفقت تسترق النّظر إليه معجبةً بتقديره لجمالها ، شاعرةً ببراءته ونواياه الحسنة . . . مستأنسةً بملامحه . . . بطيبِ المعدن . . . ورقَّة الإحساس والمشاعر . . ! وجدت فيه شابّاً واضح الملامح ، حادّ العينين ، خفيف العارضين . . . لا ينفَّك وجهه باسماً مع وقارٍ . . . فتوسّمت فيه الخير ، وخفق قلبها له . . !

غير أنَّه كان يمعنُ إليها النَّظر بعيون ثاقبةٍ مترصّدةٍ لملامح جسدها الأنثويّ وهي في بِزَّتها المدرسيَّة غالباً . . . كانت تبدو بها أكثر فتنةً وسحراً ، خاصَّةً ارتسام ساقيها ، الممتلئتين الملفوفتين باستدارةٍ في

أعلاهما نحو الخلف ، خداها الأسيلان الأملحان تبرز فوقهما وجنتاها كوردتين من دهان ، لا يخفيان في بعض الأحيان بعض الاحمرار حياءً وخجلاً . . !

إنَّ من غرابة أمر الحبِّ ، أنَّه يقع على العاشِقَين وقوع الثَّبات من حيث لا يعلمان . . . وربَّما كان الباعث عليه نظرةٌ واحدةٌ . . . فلا تكاد تلتقي العين بالعين حتَّى تجيش العواطف . . . وتتجاوب القلوب تجاوباً لا سبيل إلى دفعه . . . نعم . . . لا يحدث ذلك عند كلِّ نظرة . . . ولا عند كلِّ إنسانٍ . . . وإنَّما هو تأثير بعض العيون على بعض القلوب . . . فإذا تفاهمت العينان ، استيقظ القلبان وتجاوبا . . . كأنَّهما كانا على ميعادٍ ثمّ تاها ، وكلٌّ منهما يبحث عن رفيقه . . ثم التقيا بغتَةً . . وتعارفا بالنَّظر . . .

مِـنَ القلـبِ إلـىٰ القلـبِ دليـلٌ حيـن يلقـاه
وللنَّفـس مـن النَّفـسِ مقـاييـسٌ وأشبـاه

إحدىٰ المرَّات تعمّد اعتراضها في الطَّريق وهي ذاهبة في الصَّباح الباكر إلى المدرسة . . . تجاسر أن يقف أمامها ، وهو مُنشغل الخاطر بشيءٍ لا يعرفه غير الَّذي يعانيه . . وهو الحبُّ . . فرفعت نظرها إليه ، وتفرَّست في وجهه . . كما تفرَّسَ في وجهها هنيهةً . . . لا ندري ما دار بينهما في أثنائها من حديث العيون . . تحرّكت شفتاه بأوَّل كلمةٍ بينهما . . مريم . . ؟

فوقع صوته في أذنيها وقوع السَّهم في قلبها . . . لم تتمالك أنْ رفعت بصرها إليه مرَّةً أخرىٰ ، وحدَّقت تقرأ في تلك النَّظرة ما يعجز الخطيب عن أدائه في خطاب ، وما لا يستطيع الكاتب التَّعبير عنه في كتاب . . ! فقرأ هو منها الاستعطاف والحب والاستسلام مع الأنفة وعزَّة النَّفس . . .

أجابته بنظرةٍ قرأ فيها جواباً صريحاً على ما يتمنَّاه قلبها ، فاستبقته وقالت ـ وليس في ملامحها ما يدلُّ على الغضب أو الاضطراب ـ :

مَن قال لك . . . أن اسمي مريم ؟!

فأجابها وهو لا يقوىٰ على كظم ما في نفسه تجاهها من عواطف جيَّاشة . . :

وهل يخفىٰ القمر ؟! . . .

فابتسمت ابتسامةً فيها الإطراء والتّشجيع ، ومضت في طريقها باستحياءٍ . . . أمّا هو فاستحث الخطا وراءها وهو مطمئنٌّ الخاطر علىٰ حبيبته الَّتي لقيها أخيراً .

* * *

« الحبُّ بغتَةً »

عاد سعيد تلك اللَّيلة أشدَّ اهتماماً بهذا الرَّبيع الَّذي هتف في عمره فجأةً... لا شك أنَّ ميله إلى مريم.. كان قراراً جريئاً للغاية... استحوذ حبُّه لها على كلِّ بارقةٍ تخطر في خياله.. !

شرع في الحال ، يسبح مع أحلامه نائماً ويقظاً ، استيقظت في عقله رغباتٌ جدّيةٌ في الحياة ترافقت بخيالاتٍ رصينَةً تطمح إلى السَّعادة . لأوَّل مرَّةٍ في حياته يبادره هذا الشُّعور بالحنان والتَّوقُ إلى حياةٍ أرحبَ وأجملَ... !

استلقىٰ ليلتها على فراشه الوثير ، غامراً نصف جسده تحت الغطاءِ داسّاً يديه المطويتان تحت رأسه ، محجوزاً فكرُه بمريم.. ! كان من عادته قبل نومه مراجعه دروسه مذاكراً فيها ، فإذا ما ملَّ من حيثيات الدَّرس وأعبائه... تناول كتاباً أو مجلةً من مقتنياته وطالع فيها حتَّى يداهمه النَّعاس... لقد أصبح الوقت في ساعةٍ متأخرةٍ من اللَّيل ، وعيناه ما تزالان تتألقان يقظةً وتشخيصاً لطَيفِ الحبيبة الجميلة... ومن المستحيل أن يغمض له جفنٌ هذه اللَّيلة فخمرة الحبِّ تلعب في رأسه.. يشعر بالدَّوران حول كأسه المترع حتَّى الثَّمالة...

أمَّا مريم... فقد باتت تلك اللَّيلة هاجعةً في فراشها كحاله تماماً... تتلاطم في نفسها أمواجٌ مِنَ الخيال... تلقي بها تارةً على الشَّاطىء الورديِّ حيث الرّمال الهادئة الدّافئة... وتارةً أخرى تقذفها على كثبانٍ تعجّ بطحالب الحيطة والحذر... أو بصخور الحيرة والقلق... صحيحٌ أنَّها سعيدةٌ بهذا الحبّ الَّذي طرق قلبها دون استئذانٍ... بيد أنَّ الأنثى دائماً في مثل هذه الأحوال تغرق في فيضٍ من التأملات غير المأمولة أو المألوفة بدافع فطرتها.. فطرة الحياء الَّتي جبلها الخالق عليها.. !

كثيراً ما تستحي من القدر ، أو تخجل من المجهول الغامض ، إزاء مواقفها الجريئة الخارجة عن المألوف... أو التي تخالف فيها العادات والتَّقاليد .

رغم ذلك... اقتحمت عقلها تداعياتٌ وادعةٌ... حانيةٌ.. استحضرت من جرّائها أشباه الصُّور الحيَّة العالقة في ذاكرتها كالّتي تشاهدها في المسلسلات والأفلام الرّومانسيَّة ، ممَّا يجري بين العاشِقيَن الوالهين... عناقٌ... قُبَلٌ... شوقٌ... هيامٌ.. !

بل تخيلت سعيداً فارساً يمتطي صهوة حصانٍ أبيضَ أشهبَ ، قادماً إليها من بعيد... !

أحلامُ الصَّبابة... دائماً تبعث في النَّفس الحيويَّة والنّشاط والشّكيمة والإصرار على التعلُّق بمن نحبُّ ونهوىٰ... فكّرت مريم

ملياً تلك اللّيلة ، متذكّرةً متأمّلةً ما حدث معها هذا النّهار الّذي انقضى . . .

سعيدٌ ما يزال فتياً بعد . . لكنّه يبزّ غيره من الشّبان الّذين تصادفهم ، لديه عينان حاذقتان . . . وحاجبان نزقان . . وهو يمتاز بالجمال والفضيلة ، آه . . إنّها الصّفات المطلوبة والمُستحبّة للفتاة . . !

بينما سعيدٌ تقلّب تلك اللّيلة في فراشه ، ودمدم في نومه متأوّهاً دون أن يفتح عينيه . . . : مريم . . . أين أنت يا مريم . . ؟!

في الصّباح الباكر عقد سعيدٌ العزم على كتابة رسالة غرّاميّةٍ لحبيبته الّتي أحكم الإمساك بمفتاح قلبها ، وسكنت عقله وقلبه . . كان يشعر بالسّعادة العارمة . . وكأنّ ملكاً كريماً هبط عليه من السّماء ، وطوىٰ جناحيه في قلبه . . فأيُّ روضٍ من رياض الجنان تجلّىٰ في مُنىٰ نفسه ؟! يا الله . . . ما أسعدها من لحظاتٍ يعيشها المرءُ مع بداية سطوع شمس الحبِّ في حياته ؟! لحظات لا يمكن أن يستحوذ عليها الزّمن . . . ولا تقاس بالثّواني والدّقائق والسّاعات وإنّما تلقي ظلالها في الوجدان ، وتنضج كالثّمار علىٰ أغصان الذّاكرة وسرعان ما يتذوّق المرء طعمها الطّيب اللّذيذ الّذي يشبه طعم ماء نهر الكوثر النّضير . . . العذبِ الفرات . . . !

وبينما هو ساردٌ في أفكاره الّتي تموج برغباتٍ هائجة كالجبال ، أو تناهىٰ إلى سمعه صوت والده ـ كعادته كلّ صباحٍ ـ يجلسُ تحت

شجرة اللّيمون الباسقة الماثلة وسط حديقة المنزل ، مسنداً ظهره الّذي أرهقته السّنون إلى جذعها ، مرخياً جسمه على كرسي مصنوع من أغصان السّنديان والقّش . . يرتشف فنجاناً من القهوة . . . مُتَنّعماً بالهواء الطّازج البكر الّذي يهبّ صباحاً محملاً بالنّسائم العطرة المتطايرة مِنَ الزّهور والنباتات المكتنزةَ بشكلٍ رتيبٍ في حوضٍ ترابيٍّ مُسَيّجٍ بالحجارة من جميع جهات حديقة المنزل . . .

رنا والده في وجهه حناناً ورقّةً . . ! ثمّ انبجست شفتاه بكلماتٍ أظهرت ما في باله من القلق والحذر : ما بك يا بنيّ ـ كنت تهلوس في منامك ؟ . . .

هل هو كابوسٌ هاجمك في الحلم ؟ . . . أمْ بقايا تداعيات مكروهٍ أصابك في نهارك الفائت ؟ عادةً لا ينتاب المرء كابوسٌ في المنام إلاّ إذا أصابه مسٌّ من الهمِّ ، أو أضناه نصيبٌ وافرٌ من التعب . . !

وقف سعيد أمام أبيه صامتاً واجماً قلقاً على شكلٍ مثيرٍ للدَّهشة والتساؤل مرةً أخرىٰ من طرف أبيه ، لولا أن أسعفته بوادر فكره بالإجابة :

لا شيء يا أبي . . . إنّه عناء الدّرس ليس إلاَّ . . لم أنم حتّى حفظت بعض دروس مادَّة الفلسفة الّتي أعشقها . . . ولم أدع الكتاب حتّى عشعش النّعاس في رأسي سارقاً الصحّوه والعافية من أجفاني ، فأجدني نمت من غير هزٍّ ؟ . . .

هزَّ والده رأسَه بشدة يميناً ويساراً ، كأنَّها إشارةٌ على عدم المصادقة على كلام ابنه ، قائلاً له : ادرس . . يا بنيّ . . . ادرس ولسوف نفعل كلّ ما بوسعنا من أجلك . . . الفحص على الأبواب . . نحن الآن في بداية شهر نيسان ، ومعك وقت لا بأس به لحين الفحص . . . اغتنمه في المثابرة على الدَّرس . . . !

ثمّ نهض أبو سعيدٍ ببطءٍ وهدوءٍ ، فربت على كتف ابنه شادّاً من عزمه وأمسكه من يده سائراً بجانبه بضع خطوات . . . مالَ برأسه منحنياً إلى حوض الأزهار ، أزاح بيديه الصّلبتين بعض الأعشاب حول إحدىٰ شجيرات الورد الجوري العابق برائحةٍ طيبّةٍ تفوح عادةً مع تفتّح الورود في الصَّباح . . . قطف وردةً من منتصف ساقها على مهلٍ . . ثمَّ استقام واقفاً مولياً وجهه إلى ابنه . . دفع إليه الوردة بلطفٍ وحنانٍ مُستغلاً لحظاتٍ مورقةٍ بالأمل والودّ المتبادل بينهما هذا الصَّباح قائلاً له : خذها يا بنيّ عساه يكون صباح خير وبركةٍ . . . دراستك ونجاحك هذا العام أهمّ عندي من كلّ شيءٍ . . . ! كنْ موضع ثقتي ولا تجعل ظنيّ يخيب بك . . ؟! تناول سعيدٌ الوردة متأملاً في وريقاتها البرّاقة ، وكأنَّه يأمل أن يَبرُز له من بينها وجه مريم ضاحكاً مرحاً جامحاً للقائه . . ! ثمّ دلف في الحال إلىٰ داخل غرفته ، بعد أن قدّم لأبيه فروض السَّمع والطَّاعة لنصائحه ، طالباً منه الدَّعاء بالتَّوفيق والنّجاح بينما عاد أبوه مُكبّاً بكلتا يديه وذراعيه على

حوض الأزهار ، يتعهدها عنايةً وسقاية ، مُتمتماً مع نفسه كلماتٍ برقت في خاطره تفصح عن مدىٰ احترامه لابنه : سعيد . . لم يعد صغيراً . . صار في سنّ الرّشد والشّباب ، هذه المرحلة العمريَّة تعطيه الحقّ أن يعتبر نفسه رجلاً راشداً مستقّلاً برأيه . . إنّه يستطيع أنْ يفعل كلَّ شيءٍ ، ويستطيع ألاّ يفعل شيئاً على الإطلاق . . . !

لكنّ الأمل بنجاحه خالط روحه بلا شكٍّ ، لأنّه كان يثق باجتهاده ثقةً عمياء . . . !

وكان سعيد قد مُلىء عزماً من نصيحة أبيه لتحقيق كلَّ ما هو إيجابيٌّ ، وغَمره الفرح والسّعادة . . . وها هو الآن في غرفته جالساً وراء طاولته واضعاً أمامه ورقةً موشّاةً بخطوطٍ حمراء وزرقاء على حواشيها مخصّصةً لكتابة الرسائل الهامّة في الأعياد والمناسبات . . . شرعَ يخط فيها أول رسائله إلى حبيبته بعدما توّهج الحبّ في قلبه :

حبيبتي الجميلة . . . وجهك الصّبوح يشبه هذه الوردة . . . أرىٰ في بريق عينيك الدّنيا كلّها مشرقةً سعادةً وأملاً ، مُذ توجتُكِ في قلبي حبيبتي . . ابتسم لي القمر . . وضحكت لي الشّمس . . . أحسُّ بعذوبة النّغم الجميل الّذي ينساب على أوتار قلبي . . . فتصدح الطّيور فوق الغيوم بأعذب الألحان . . . إنْ كان حبّك صعبٌ ، فشوقي إليك أصعب . . . الحبّ ملأَ كلَّ الدّروب . . . وطوىٰ الزّمن ساعاته وأيّامه عندما رأيت وجهك الجميل . . . أتوق إلى لمسةٍ من

أناملك النَّاعمة لأعود جنيناً في رحم السّنين ينتظر ولادةً جديدةً . . في كلّ خلجةٍ من خلجات نفسي . . وفي كل خفقةٍ من خفقات قلبي أشتاق إليك اشتياق النّار للحطب . . !

طوى الورقة بأناقةٍ . . . وضعها مع الوردة في منديلٍ ورقيٍّ معطّرٍ ثمّ لفّها لفّاً أنيقاً ودسَّها في جيب قميصه ، مفكّراً بما يجب فعله لتصل رسالته مع الوردة المعطرة إلى يدي مريم . . . !

حمل بيمينيه حقيبته المدرسيّة ، وخرج لتوّه قاصداً مدرسته سالكاً الطَّريق الذي تسلكه مريم إلى المدرسة ذهاباً وإياباً . . كانت السَّاعة تشير إلى الحادية عشر والنصّف صباحاً ، قبل بداية الدَّوام المدرسيّ بنصف ساعةٍ . . حتماً هي ستخرج من المنزل في هذا الميعاد .

* * *

مُناجاةُ القَمرِ

بعد أنْ مرَّت تلك اللَّيلة المقمرة كان كلُّ شَيءٍ على ما يُرام ، فجمال هذا الصَّباح يُشْعِر بحلاوة الحُبِّ ، حتّىٰ الأجواء هذه الأيَّام تَبْعث الأنس والسَّعادة في فيحاء النَّفس ، فجحافل البرد بدأت بالانسحاب لتفسح الطّريق للربيع القادم . . . !

وفي هذا الصَّباح من يوم السَّبت ، كان سعيد قد وصل لتوّه إلى بداية الطّريق المؤدِّي إلى مدرسة مريم ، الشّمس ساطعةٌ ، والجوّ دافىءٌ ، والسَّماء صافيةٌ تماماً من السُّحب ، والوقت يميل إلى الضّحى الشَّديد . . . ! وقف ينتظر قدومها على تقاطع الطَّريق الَّذي يعجُّ بالطّلاب الذّاهبين إلى مدارسهم من كِلا الجنسين . . . كان شارد العقل مُرتبكاً يجيل بصره يمنةً ويسرةً كأنّه يريد فتح ثقبٍ في جدران المستحيل . . . أعصابه مُسْتنفرةٌ . . تتقاذفه دوّامة الأفكار السَّاخنة من وادٍ لآخر . . ! لم يعتد قبل اليوم أنْ يهبَ رسالةً غراميَّةً عطرةً برائحة الورد لفتاةٍ أحبَّها . . !

فجأةً . . . وجد نفسه يتأمّلها وهي قادمةٌ من مسافةٍ ليست بعيدةً ، تخطو باتجاهه مبتسمةً ، لكنّ الحيرة والقلق يستبدّان بها هي

الأخرىٰ . . ! وتتسارع تساؤلاته ، ويَتوَسَّع ارتقابه لها ، ولم يعد يشعر بخفقات الدَّقائق والثَّواني الّتي استغرقتها لتقف بقامتها الممشوقة أمامه ، فبدت مبهورة الجَنان بجلالة حضوره البهيِّ ، غير أنَّ شعورها بتحقُّقِ أحلامها الصّغيرة أجبرها على مبادرة إلقاء تحيَّة الصَّباح عليه .

ولعلَّه لم يكن هناك شابٌّ في العالم أسعد منه في جلال هذا الصَّباح الَّذي انسابتْ فيه تحيَّتها الرَّقيقة في سمعه . . ! وهبطت لتوَّها في قلبه كهبوط آدم إلى جنَّة الفردوس الأعلىٰ . . . ليتسلَّم منها حبَّه الجديد . . . !

شرع سعيد يتلمّس بكفّه الأيمن المنديل الورقيَّ عامداً لقصِّ الشَّريط الأحمر لبداية حبِّه وعشقه ، كاشفاً عن سرِّه المكنون في قلبه دافعاً إلى حبيبته أوَّل رسائله في غرامها ، ومُهدِياً إليها أوَّل وروده بعذريَّةٍ بريئةٍ قائلاً لها : أرجو أن تقبلي منِّي هذه الهديَّة الجميلة قطفها والدي لي من حديقة منزلنا بعدما وقع في خلده أنِّي عاشقٌ والهٌ بفتاته . . !

ابتسمت مريم ابتسامةً ساحرةً تحمل في مكنونها تساؤلاً غريباً :

أبوك . . . اقتطفها . . . يا للدهشة . . ! ؟

أجابها ضاحكاً معجباً بجرأتها وهي تتحسس بأنفها رائحة الوردة المتفتحة أوراقها : نعم . . ألا تعلمين أنّ الولد سِرُّ أبيه ؟ . . لم تكن

مريم بالنَّضج العقلي الّذي يسمح لها بفكّ رموز الأمثال ، ولم تكن خبرتها في الحياة تؤهلها للإجابة ببديهيَّة واضحة الذَّكاء ، وإنَّما اكتفت بمداعبةِ أوراق الوردة بأصابع يدها اليسرىٰ مُتكرَّمةٌ عليه بألفاظ الشُّكر والعرفان ، وهي تعترف بذوق أبيه احتراماً وتقديراً .

عندما أحسَّ الحبيبان بأعين المارَّة تلاحقهما فضولاً لمعرفة فحوى وقوفهما في عُرْضِ الرَّصيف ، بادرت مريم معتذرةً لحبيبها لقطع لقائها وحديثها معه على أمل أن يتجدَّد في غير هذا الوقت ، وغير هذا المكان ومضت سريعاً إلى مدرستها بعد أن دسَّت الرَّسالة في جيبت بنطالها وغرزت الوردة بلطفٍ بين دفّتي كتابها ، كما مضىٰ سعيدٌ بدوره إلى مدرسته سالكاً الطَّريق المعاكس لطريقها . . . !

مرَّت تلك السويعات ذلك اليَّوم بسرعةٍ هائلةٍ ، وبعد أن دار النَّهار دورته ، وأرخىٰ اللَّيل سدوله ، كانا على موعد أخرٍ تجدَّدَ خلاله اللقاء بينهما خيالاً طاف بهما بين النجوم السَّاهرة في محار السُّكون ، وروحاً حلَّقت بهما بين طيوف القمر المُرسل ضياءه للقلوب والمهج الوالهة .

ما أحسنه من وقتٍ يمرُّ على الأرواح اليقظة هذا المساء . . . المساء الّذي يحمل على جناحي أثيره هُيام القلبين العاشقين وَوَجْدَهما . . . فتتعانق الرُّوحان على همس العيون . . ويتخاطر القلبان على صدىٰ الشَّوق والحنين . . .

ما أسعدها من لحظات عندما يُشرق فيها وحي الهوىٰ العذريِّ الخاشع على رسول البوح ليبلِّغ كلَّ عاشقٍ ساهرٍ رسالة حبيبه إليه وإخلاصه له. . . إنَّها لحظاتٌ تتجاوز حُجُب العالم الماورائي ، وتسهر على صراط الحبِّ العذريِّ الطَّاهر .

كانت صورة الحبِّ وبهاؤه واضحةً للغاية في قلب مريم تلك اللَّيلة الَّتي لا تشبه اللَّيالي الَّتي مضت من حياتها الماضية كلَّها. . ! دقَّت السَّاعة الثَّامنة مساءً في أُخريات فصل الشَّتاء ، وهو الوقت الَّذي تخلد فيه مريم إلى الدَّرس والإستذكار بعيداً عن الأجواء المنزلية الَّتي تُخَيِّم مساءً عادةً ، وقد اعتادت كلَّ مساءٍ في مثل هذهِ السَّاعة أن تقتحم عليها أمها صمتها ووحدتها للتأكّد من انشغالها بالدِّراسة ، ولتسألها عمَّا ترغب نفسها من شراب ساخن ؟!

طلبت هذه اللَّيلة من أمّها أن تعدّ لها إبريقاً من الشَّاي الشهيَّ بالقُرفةِ وعلى جناحِ من السَّرعة أعدَّت لها أمّها ما طلبت ، وأحضرت إبريق الشَّاي مع كأسٍ زجاجيٍّ ، ووضعتهما أمامها على الطَّاولة ثمَّ خرجت مغلقةً الباب وراءها ، بعد أنْ أوصت ابنتها بالمثابرة وشدِّ العزيمة على الدَّرس والحفظ .

تناولت مريم الكأس الزجاجي وصبّت فيه الشاي حتَّى امتلأ ، احتست منه قليلاً ، ثمَّ اتَّجهت نحو النافذة وفتحتها. . . سرعان ما وقع بصرها على القمر فتأمّلت شكله وجمال ضوئه في ليلةٍ ساكنةٍ

باردةٍ لا تسمع فيها إلاّ أصوات الرِّياح. . . ودندنة حفيف الأشجار المصفوفة على جانبي الطريق ذي الإطلالة السَّاحرة على كورنيش البحر الهادىء .

تناولت مريم بلهفةٍ ورغبةٍ عارمتين الرسالة والوردة اللَّتين أعطاهما لها سعيد. . وطفق قلبها يستضيء ويغني مع كلِّ كلمةٍ تبدو منها جلياً روحُ الحبيب ، وقلبُه الخافق. . . ومن غير شعورٍ أدارت وجهها إلى المرآة متأملةً صفحة وجهها ، ماسحةً ببطءٍ على شعرها وخدّيها ، هامسةً لنفسها : إلهي رجوتك أن تبارك هذا الحبَّ الَّذي ينزلق في قلبي انزلاق القمر بين غيوم الرَّبيع. . وأن تدرأ عنِّي أبواب الشّقاء والعذاب. . . إلهي ألهمني التّوفيق والرّشد دائماً لأصل إلى الغاية الَّتي أنشدها .

وبينما هي غارقةٌ في هذا التّأمل الرّوحي ، سرعان ما اقتحمت عليها أمّها مرّةً أخرىٰ عالم صمتها وسكونها ، فغشيت مريم غيمةٌ من الارتباك والهلع. . ! وأحكمت قبضتها بشدَّةٍ على الرَّسالة. . . ثمّ أدارت وجهها إلى أُمّها راسمةً ابتسامةً واضحةً عليه.

بادرتها أمَّها قائلةً : كنت أحسبك تدرسين ، فأجدك تقفين أمام المرأة. . . ليس من عادتك يا بنيّتي. . ولماذ تبدين قلقلةً هكذا ؟ هل أصابك خطبٌ ما ؟!. . إنّ آثار الحيرة والقلق باديةٌ على وجهك وليست بحاجةٍ إلى دليلٍ ليؤكدها ؟!

أجابتها بردٌّ سريعٍ طاردٍ لجحافل الظّنون الّتي غزت لُبَّ أمِّها : لا . . . لا تقلقي . . . ! كلّ ما في الأمر أنّي مرهقةٌ قليلاً ، فأحببت ابتغاء الرّاحة فوقفتُ على النّافذة أتأمل اللّيل الّذي يزيّنه ضوء القمر . . !

ـ حَسَنٌ يا بنيّتي . . . إنْ كنت تشعرين بالتّعب والإرهاق فاخلدي إلى النّوم واستيقظي في الصّباح الباكر واستأنفي دراستك . . ! لكن حذارِ أن يكون هناك ما يشغل عقلك وقلبك . . ! ؟

ـ لا . . لا يا أميَّ . . . ليس هناك شيءٌ من هذا القبيل . . . أرجوك ألا تحمّلي الأمور أكثر من حجمها . . .

انصرفت الأمّ تاركةً ابنتها في غرفتها بعد ملاحظتها الضعيفة لتصرّف ابنتها ، وانطوائها اللاّفت للنّظر عن دراستها ووقوفها تناجي أنوثتها أمام المرأة . . . !

كانت الأمّ مقتنعةً تماماً ، بأنّه لا بدَّ من التّروي قليلاً قبل أن تزّج عقلها في زنزانةِ الهواجس والأفكار غير المأمولة ، فالأمور بحاجةٍ إلى تفهُّمٍ وتعقّلٍ قبل إطلاق أحكامنا عليها نتيجة موقفٍ عابر ، أو سلوكٍ ، لا يروق لنا من تصرُّف الآخرين .

* * *

« لغزٌ وحلمٌ »

مرت الأيّام قليلاً بعد استفاقة قلب مريم للحبّ الّذي أولته جميع مشاعرها الجيّاشة . . لم يكن لها الخيار في قبوله أو رفضه . . تماماً كحال المرء الّذي لا يملك خياراً لنفسه قبل أن يُخلق . . ! هكذا هو الحبّ يولد كالإنسان بلا ذنبٍ ، ولا خيار له في هذه الحياة الّتي لها وجهان . . . وجهٌ يحمل الجمال والسّعادة . . ووجْهَ يحمل الشّقاء والتّعاسة ، وهو دائماً بحاجةٍ إلى عقلٍ يتدبّره ، وإدراكٍ نافذٍ يسير معه ويسانده على حافّة القلب . . . ويقيّده عن جنون المشاعر وفورانها البركانيّ الّذي يغشىَ هضاب النّفس ويقذفها بالنّيران والحمم . . !

كان اللّقاء المتخفّي والمتواري عن أنظار الأقرباء والأصدقاء وجميع المعارف يتكرّر باستمرار بين الحبيبين . . كان يختاران مكاناً هادئاً أميناً يكاد يخلو من النّاس ، في إحدىٰ حدائق المدينة المطلّة على البحر البعيدة عن السّكن والبيوت . . لا يلاصقها إلاّ البحر بمنظره السّاحر وأمواجه الصّاخبة . ونسائمه العليلة الّتي تهبّ بين الفترة والأُخرىٰ ، تهمسُ في القلوب وتزيل عنها ما ران على جنباتها

من همومٍ ومتاعبٍ ، كان البحر يوحي بالشّعور المزهر بالسّعادة لكلِّ من يستودعه صفاء نفسه ونقاء عقله وقلبه معاً . . !

وبعد لقاءٍ إثر لقاءٍ . . تجانس القلبان وأصبحا وحدةً لا انفصام لها ، تربط بينهما كيمياء الحبِّ بعناصرها وأوشاجها المتمثّلة بوحدة الشُّعور بالشّقاء والسَّعادة . . . ووحده الأهداف والمشاعر والآمال . . !

كما أنَّ الأمر الَّذي أسعد الحبيبين في تدابير القدر ، أنَّ الحبّ الَّذي سكن قلبيهما دفعهما إلى مزيدٍ من الجدّ والاجتهاد والمثابرة على الدُّروس بغية النَّجاح في امتحان الشَّهادة الثَّانوية هذا العام ، كانا يشعران أنّهما يقفان على مفترق الطَّريق . . وعلى عتبة الحياة ليحظيا بمستقبلٍ زاهرٍ مُكلّلٍ بالنّجاح .

توالت الأيَّام حتَّى أوشكت نهاية الأسبوع الأخير من شهر أيَّار على الدُّخول ، أي : لم يبق لبدءِ امتحان الشَّهادة الثَّانويّة إلاّ أيامٌ معدوداتٌ . . ثلاثةٌ . . أو أربعةُ أيامٍ ، ومن المعتاد أن يكون الامتحان هو الشّغل الشاغل للنَّاس عادةً في المدن الصغيرة الهادئة حيث تكون الشّريحة العظمى من أبنائها طلاَّباً . . . كأنّ عجلة الحياة فيها تتوقّف عن الدَّوران في المشاغل الحياتيَّة . . . ! فالبيوتات تتأهّب بشكلٍ ملحوظٍ استعداداً لتأمين الرَّاحة والهدوء للأبناء . . والآباء والأُمّهات منشغلون بتبادل ألفاظ الرَّجاء ليكون النَّجاح حليف أبنائهم ، أو

غارقون في الصَّلاة والدُّعاء المأمول باستجابة الله ، ويسألون السَّلامة لعبور أبنائهم أيّام الامتحان براحةٍ وأمان . . . وهذا تقليدٌ شعبيٌّ نلاحظه دوماً في مجتمعاتنا الَّتي تحمِّل القدر تبعات أيِّ مسؤوليةٍ كانت . . أمرٌ غريبٌ حقّاً أن لا نرى استحضار مجتمعاتنا للعلم والنّجاح إلاّ عند اقتراب موعد امتحانات الشّهادة الإعداديّة أو الثّانويّة ، فيكثر ذهاب النّاس نحو المكتبات والمحال المخصَّصة لبيع النّماذج المحلولة لأسئلة المواد والمناهج الدِّراسيَّة الَّتي يجب أن يحفظها الطَّالب منذ بداية العام الدِّراسيِّ . . !

سرعان ما دار الزَّمن دورته وعصفت رياحه بآخر وريقةٍ من وريقات شهر أيّار ، استيقظت مريم من نومها صباح ذلك اليوم ، قلِقةً مستنفرةً من حلمٍ عجيب راودها في منامها ، ولا يزال عالقاً في ذاكرتها ، وفي مخيلتها لا تزال صورة تتراءى أمامها كأنَّها قبسٌ من الحاضر في العالم الخارجيِّ المحسوس . . . فقد رأت في منامها فتاةً عاريةً لا يتجاوز عمرها السّابعة عشرة سنةً ترقص تحت شجرةٍ طويلةٍ مزهرةٍ . . ! هذه الفتاة جميلةٌ وجذّابةٌ ظلّت ترقص تحت تلك الشجّرة دقائق معدوداتٍ . . . وبينما هي في غمرة الرّقص والنّشوة سقطت على ظهرها . . . فهُرعت إليها أمُّها الَّتي كانت تنظر إليها بشيء من السرور والبهجة . . !

وحين أمسكت بها وجدتها قد ماتت . . . ! وهي في ريعان شبابها ، بعدها ولَّت الأمُّ هاربةً . . . إلاَّ أنَّ طرف ردائها تعلّقت به

وردةً جميلةً صفراء اللَّون ، فالتقطتها وراحت تشمُّها ، وفجأةً ذبلت في يدها وتبخّر عطرها. . . . وتبعثرت وريقاتها الصفراء. . ! وسرعان ما عصفت بها الرياح العاتية لتتطاير متباعدة عن بعضها البعض. . !

قامت مريم وغسلت وجهها بعد أن حوقلت بينها وبين نفسها من كآبة هذا الحلم. . . وفي لحظاتٍ خاطفةٍ وجدت أمّها قد أعدَّت لها القهوة ، وهيأت لها مُتَّكئاً مُريحاً في غرفتها بغيةَ شحذ همّتها للدِّراسة في هذا الوقت الباكر .

تناولت فنجاة القهوة من يدي أمّها الحانيتين ، وأخذت تحتسيها وهي ترنو بعينيها المتفتِّحتين بقوَّة نحو الأرض. . . مفكِّرةً بهذا الحلم العجيب . وأحسَّت في دخيلة نفسها أنَّه ليس مجرد أضغاث أحلام ، سائلةً نفسها هل حبّها لسعيدٍ يا ترىٰ. . له علاقةٌ بهذا الحلم الذي شغل بالها وخاطرها. . !

بعد أن تناولت من القهوّة عدَّة رشفات نادت على أمّها مستنجدةً بها لفكّ رموز هذه الرُّؤيا الغريبة. . ! حين جاءت أمَّها طلبت منها الجلوس إلى جوارها لتسرّ إليها مناماً رأته. . وبلهفةٍ عارمةٍ. . . سألتها أمَّها : خيراً ماذا رأيت ؟ هيَّا أخبريني. . لا أروق لأدنىٰ فكرةٍ تقلق بالك. . فبعد غدٍ هو اليوم الأوَّل من امتحانك. . . !

قصَّت مريم على أمَّها ما رأته في حلمها كاملاً. . ! فبادرتها أمُّها

قائلةً : أريد مساعدتك يا مريم على فكّ رموز الحُلم الّذي يبدو له معنىً محيِّر أشبه باللّغز الغامض. . . ثمَّ ابتسمت الأمَّ قليلاً وقالت : أقسم بالله. . أنَّ هذا الحلم بشارةٌ من الله لنجاحكِ. . !

ثم صمتت للحظاتٍ حائرةً متأملةً في وجه ابنتها المتشوِّقة برغبةٍ عارمةٍ إلى معرفة تفسير حلمها ليهدأ بالها فقالت لها : المشكلة يا ابنتي أنّني لا علم لي بتفسير الأحلام. . ! لكن هناك في آخر الحيِّ تقطن امراةٌ طاعنةٌ في السِّن تُدعىٰ الحاجّة « رقيّة » يقصدها النَّاس من كل مكانٍ. . ولا أظنّ إذا ذهبت إليها أن أعود خالية الوفاض من كلام يريح بالك ويهدىء من روعك. . !

أمسكت مريم بيد أمها راجيةً : أرجوك يا أمّي الحنونة أن تذهبي إليها وتقصِّي عليها الحلم كلَّه ، ثمّ عودي إليَّ بتعبيرها ؟! قولي لها إنَّ ابنتي رأت هذا الحلم الَّذي يحمل في طيّاته معانٍ ربما تتعلَّق بما تأتي به الأيَّام واللَّيالي من حادثاتٍ ووقائع. . ؟! استجابت أمّها لطلبها ، وهُرعت مسرعةً إلى المرأة العجوز ، ولم يفتها أن توصيَ ابنتها بالكفّ عن التفكير إلاّ بدراستها .

بعد ساعةٍ كاملةٍ عادت إليها وجلست إلى جوارها ، ومن فورها سألتها مريم : هل وجدتِ العجوز. . . ؟ ردَّت الأمُّ : وجدتها وقصصت عليها رؤياك ، فأخبرتني عن تفسيرها. . اسمعي يا مريم قالت لي : أمَّا الفتاة التي ترقص تحت الشّجرة ، فهي فتاةٌ جميلةٌ

ومجتهدةٌ ، ويشغل بالها أمرٌ هامٌّ في الحياة . . . سكتت الأمُّ ونظرت في وجه ابنتها قليلاً . . غير أنَّ مريم شدت على يدها وهي ترجوها إكمال الحديث . . هيَّا يا أمّي . . أكملي . . ! ؟

فقالت الأمَّ : وأمَّا الرّقص الَّذي تمارسه ما هو إلاَّ عيشٌ في دوَّامة الأفكار الحزينة والقلق والحيرة . . . !

وأمَّا الشّجرة الطّويلة المزهرة ما هي إلا دليلٌ على النَّجاح والتوفيق . . يبدو أنك ستنجحين يا مريمْ ، وتحصلين على الشّهادة الثَّانويَّة . . !

أمَّا موتُ الفتاة فهو نذيرٌ خطيرٌ قالت العجوز : إنَّك ستتزوجين ممنّ لا تحبينه وتبقين تحت رعايته حتَّى يُحدث الله أمراً كان مفعولاً . . ! عندما سمعت مريم ذلك أحسَّت بالدُّوار يقتحم رأسها ، وبادرت أمَّها بالقول . . . ثمَّ ماذا قالت العجوز ؟ . .

قالت : أمَّا الزّهرة الصّفراء استعصىٰ تعبيرها على العجوز . . . وقالت : العلم عند الله ؟! . . هذا هو تعبير رؤياك يا مريم كما فهمته المرأة العجوز .

وما إن أنهت الأمَّ كلامها حتَّى قُرِعَ البابُ ، فهرعت الأمّ لمعرفة من الطَّارق ؟ . . . ورياح القلق والحيرة تعصف بكيان مريم وتملؤ عليها معظم أقطار نفسها ، وبدا لون وجهها غير مستقرٍّ يميل نحو الاصفرار ، يكسوه الهلع تارةً ، والحذر تارةً أخرىٰ . . . فلم يكن

عسيراً على أمّها أن تلاحظ خفقان قلب ابنتها ، وتشتّت ذهنها فجأةً . . وممّا عزّز انطباعها هذا إصرارُ مريم على معرفة رموز حلمها ، ورجاؤها لها للذّهاب إلى العجوز المعبّرة للأحلام ، بيد أنَّ استعجال خطاها ناحية الباب الخارجيّ للمنزل لم يمكّنها إلاّ أن توصي ابنتها بمتابعة الدّرس قائلةً لها على عجلةٍ من أمرها : لا تشغلي بالك . . ولا تحمّلي نفسك فوق طاقتها ، ما كلام العجوز إلاّ هراءٌ ، ولا مصداقيّة له ، متىٰ كان مدلول الحلم حقيقةً ؟! . .

غادرت الأمّ هنيهةً ، ثمّ أطلّت بطرف رأسها من باب الغرفة ، وقالت لابنتها بلهجةٍ سريعة : هذه جارتنا أمّ مازن جاءت لزيارة صباحيّة ، سأجلس معها في الصّالون . . فثابري على الدّرس يا ابنتي .

فتحت مريم كتابها على الطّاولة أمامها بينما عقلها شاردٌ في عالمٍ آخرٍ . . ! الرّؤيا التي رأتها ألقت في نفسها روعاً كثيباً شعرت خلاله بالمرارة والأسف . . . تذكّرت أنّها سمعت يوماً من إحدى معلّماتها أنَّ الأحلام عبارةٌ عن رغباتٍ مكبوتةٍ في النّفس ، تهفو إليها الرُّوح وينتزعها العقل الباطن من خزّان الذّاكرة فتتجّسد في الأحلام لواقعٍ تبدّىٰ في المنام لا في الواقع المعاش .

يا لها من لحظاتٍ قاسيةٍ ، معذورةٌ مريم بحرصها على تفادي خطر كلام العجوز في حياتها وهي في هذا العمر الّذي لم يكتمل فيه

نضوجها العقلي بعد. . . قساوة الحلم تذبح شرايين الفؤاد ، أمام إحساسٍ مرهفٍ باستشراف الخطر والأمنيات غير المرغوبة. . ! حاسّتها السّادسة طغت على مشاعرها وكلِّ اهتماماتها ، تفكيرها بالأشياء بواقعيّة وعقلانيّة أقل خلف ردهات عقلها وأصبح يجول في ظلماتٍ دامسةٍ باطن نفسها ، وينتقل من سؤالٍ إلى آخرٍ. . ! هل من المعقول أن تتعرّىٰ أوراق الأشجار يوماً. . ! وتموت جذورها في تربةٍ سقتها بمياه الأمل ، فيعود هذا الحب الذي يسكن فؤادها يباباً ، أو عصفاً مأكولاً. . ! ؟ وهي الفتاة الّتي تقف بكليّتها علىٰ مشارف نهاية سنّ المراهقة ، ولم تصقلها الحياة بتقلبّاتها ودورانها العجيب بين واحة السّعادة والفرح ، وبين كثبان الحزن والشّقاء. . . هل يتحقّق تعبير العجوز لحلمها فتتزوّج مستقبلاً بمن لا تحبُّه أو لا ترغب فيه ؟!

فجأةً. . . تراخىٰ عقلها عن سيل الأفكار المتداعية ، فدمدمت بجسدها على كرسيّها الجالسة عليه ، وحرّكته ذات اليمين وذات الشّمال ، وطوت ذراعيها إلى جانبي شحمة أذنيها ، وقذفت بشعرها الكستنائي خلف ظهرها ، واستقامت بجلستها وهي تمطّ عنقها نحو الأعلىٰ. . تناولت كوب الماء وعبّت الماء في جوفها بشراهةٍ كأنها عطشى في صحراء قاحلةٍ. . سرعان ما أحسّت بانقلابٍ كيميائيٍّ في قواها العقليّة. . فالماء أثلج صدرها فانعطف تفكيرها نحو اتجاهٍ مستقرٍ ، وأشرقت في مخيلتها صورة وجه سعيدٍ كأنّه يطمئنها على

حبّه ووفائه لها طوال العمر ، ومن غير إرادةٍ وجدت نفسها تتمتم بعض الكلمات وطفرت الدَّموع من مآقيها : يا الله ساعدني واحفظ لي سعيداً ، واحفظني له ! . .

وفجأةً انبجس في نفسها أملٌ بدَّد الغشاوة الَّتي رانت على أغصان عقلها فملئت عَزماً وإصراراً وإقبالاً على الدَّرس ، فانكبتّ على كتابها بنهمٍ يشبه نهم الصَّائم إلى الشّراب والطّعام إذا ما دوىٰ مدفع الإفطار .

* * *

كم أنت رائعةٌ يا أميّ ؟...

دار الزَّمن دورته ، وانسابت الأيَّام مسرعةً تستعجلها لواعج قلبيَ الحبيبين إلى وصالٍ يكسفان به زحمة اشتياقهما إلى لقاءٍ عامرٍ بالهمس ، ووشوشة الأمنيات ! . .

وهاهما الحبيبان يلقيان أقلامهما بعد أنْ جفّ حبر امتحانهما ، وتجاوزاه باطمئنان وثقةٍ توصلهما إلىٰ النَّجاح . . . وهاهما يمسكان بأيدي بعضهما ويسيران معاً جنباً إلى جنب بغبطةٍ وانشراحٍ وهدوء بالٍ يعظم فيه الوصف . . ! وشرعا يدخلان محرابَ الحبّ تحت حفيف الأشجار وتغريد العصافير . . . كان النَّهار رائعاً صيفيَّاً فسيحاً بضياء الشَّمس الرائعة وسط النّهار ، وما كادا يصلان إلى الحديقة المعهودة ، حتَّىٰ عمدا إلى تبديد الحبّ وبذره بين جنباتها الطّافحة بأزاهير الخزامىٰ الّتي تألقت كبُسُطٍ حمراء على مخمل مروجها الخضراء . . . وإنّهما ليستنشقان عبير الأمل بالنَّجاح بعد أن سهرا وتعبا . . ! واخترقا مفازاتِ وصحراوات المحن الّتي ألمَّت بهما . . . حيث سَرىٰ خبر حبّهما في آذان المقرّبين ، وشاع على ألسنة الحاسدين والمغرضين . . كادت في أيّام امتحانهما تشتدّ عليهما

وطأة الخوف والهلع والحذر ، لولا أن تداركتهما رحمة من أهلَيْهما عندما علموا براءة علاقتهما فلا تعدوا أن تكون تبادلاً للحبّ والإعجاب فقط .

ففي أيّام الامتحان عادةً ما تكون جلبة النَّاس واضحةً أمام المدارس والمراكز الامتحانيّة . فالأهالي يجتمعون بازدحامٍ ملحوظٍ على مقربةٍ منها من أجل الاطمئنان على سير امتحان أبنائهم ، وهي عادةٌ تبرهن على الرّباط العاطفي المتين للعلاقات الأسريَّة في بلادنا الشّرقيّة ، ويشير إلى الحرص المقدَّس للأبوين في مثل هذه الامتحانات المصيرية على مستقبل أبنائهم ! . . .

حدث ذلك في اليوم الأوَّل من الامتحان ، وقتها انتهى سعيدٌ من الإجابة على الأسئلة بسرعةٍ فائقةٍ ، وخرج لتوِّه من قاعته الإمتحانيّة ، وكانت عيون زملائه ترمقه بدهشةٍ متسائلين : كيف انتهى سريعاً من الإجابة ؟ . .

ومن ثَمَّ ، عَبَر بوَّابة مركزه الامتحانيّ متّجهاً نحو أقرب طريقٍ يؤدّي به إلى المركز الامتحانيّ الّذي تمتحن فيه مريم . . . إلاّ أنّ الصُّدفة كان لها خيارٌ يختلف عمَّا كان يصبو إليه الحبيبان ! . .

وأمام المركز الامتحانيّ وقف سعيدٌ ملهوف النّفس ، مخطوف العقل يترقب خروج مريم ، وبدا كالّذي يبحث عن شيءٍ أضاعه ، وهو بحاجةٍ ماسّةٍ إليه ، وكأنّه في شبه غيبوبةٍ عن إدراك حملقة النّاس

إليه ، أو النّظر في وجوههم ، وتحديد هويّة من يعرفه منهم . . !

خفقات قلبه تستعجل خروج مريم من الامتحان ، ولهذا لم ينتبه على الإطلاق لوقوف أمّ مريم تنتظر خروج ابنتها على الجانب المقابل للمكان الّذي يقف فيه وقد كانت تقف مع إحدى جاراتها الّتي حضرت لنفس المقصد . . .

وما بين لحظةٍ وأخرى كانت دقات قلبه تتسارع كلما لاح طيف فتاةٍ شارعةٍ بالخروج ، ولكنْ سرعان ما يهدأ قلبه ويعود إلى استقراره عندما يتأكّد من هويّة الفتاة . . . وبعد انتظارٍ طال فيه التّرقب برق له وجه مريم الصّبوح ، فترنّم قلبه بقشعريرة لا توصف ، وانطلق هاتفاً عليها بصوتٍ مسموعٍ ، وعندما وقف أمامها لم يترك لها حيلةً للاستغراب أو للمفاجأة بقدومه ، فسريعاً ضغط بكفّه الأيمن على كفّها الأيسر يصافحها ، ومن غير شعورٍ بادلته مريم الودّ والحديث حول مضمون الإجابة عن أسئلة الامتحان . . نسيت مريم اتّخاذ الحيطة والحذر كون أمّها تنتظرها . . فجأة صحا عقلها ، وتحوّلت مشاعرها وأحاسيسها ، واكفّهرت أجواء نفسها ، كما أطبق الصّمت على شفتيها ، وسرعان ما استجابت لنداء أمّها لها والتي كانت تقف على بعد خطواتٍ قليلةٍ حيث يقفان ، فهرعت لفورها تاركة سعيداً يغرق هو الآخر في حمأة الدّهشة ، وانزياح شعور السّعادة بلقائها .

استفسرت الأمَّ مخجولة أمام جارتها من مريم عن سبب وقوفها مع هذا الشَّاب ، ومَنْ يكون ؟ . . بينما كانت الجارة تحدِّق في وجه مريم بإمعانٍ شديدٍ ، متأملةً ألوان الخوف والحذر الَّتي لسعت وجنتي مريم ، وأخفت بريقهما . . !

ردَّت مريم سريعاً بصوت تعمدَّت فيه أن يكون مكنوزاً بالثِّقة : هذا سعيدٌ ، صديقي في المعهد جاءني مستبشراً ومباركاً لي على أسئلةٍ كنَّا نتوّقعها وجاءت اليوم في الامتحان . . وهو يقطن في الشَّارع المحاذي لبيتنا . . . وأبوه صديق والدي . . ! ؟

أَلَقَتْ الأمّ نظرةً سريعةً إلى عيني جارتها ، فأدركت أنَّ شيئاً ما لا يروق لها للخاطر الذي قد وقع في نفسها . . . ومن المعيب إلقاء اللوّم أو طرح مزيدٍ من الأسئلة على ابنتها إزاء هذا الموقف الدّراميّ الّذي تكتنفه شكوكٌ مريبةٌ ، فاعتذرت من جارتها وأومأت برأسها خفيفاً إيعازاً لمريم بالمضيّ معها إلى المنزل .

في المنزل لم تتمالك الأمّ ضبط أعصابها المتوترة ، وعادت تسألُ ابنتها عن سبب إخفائها علاقتها مع سعيدٍ ، وحذّرتها من محاولة تبرير الأمر في اتّجاهٍ آخر . . !

نظرت مريم في وجه أمّها مرتبكةً خجلةً وقالت : صدقاً ليس بينه وبين سعيدٍ إلاَّ تبادل الإعجاب ، والمواعدة على أملٍ يتجلَّى في المستقبل ، وعلاقتي معه بريئةٌ للغاية ؟!

فقهت الأمُّ كلام ابنتها ، ووقع في حدسها أنَّ مريم صادقةٌ فيما تقول وأخبرت ابنتها أنّها ما زالت صغيرةً على هكذا نوعٍ من العلاقات العاطفيَّة الّتي عادةً لا يُؤمَن جانبها من المخاطر والمشكلات الّتي لا تحمد عقباها ، وحذّرتها قائلةً : هل تدرين لو سمع أبوك أو أخوك شفيق بهذا الأمر حتماً سيتصرّفان.معك بحميّةٍ وعصبيّةٍ وقسوةٍ ، وسيطيش عقلهما وسيستشيطان غضباً وحنقاً . . !

سكتت الأمّ هنيهةً ، ثمَّ قالت قلقةً : يا ابنتي . . لاحظت أنّ جارتنا وقع في روعها أمرٌ مثيرٌ للريبةِ عندما شاهدتك تتكلمين مع سعيدٍ ولسانها كما هو معروفٌ في الحيِّ سليطٌ جداً ، لا يترك شاردةً ولا واردةً من أسرار النَّاس إلاّ ويخوض فيها ، ويغشى خباياها . . وهي امرأةٌ خطيرةٌ جدّاً تعرف كيف تنال من سمعة النّاس . . ! فحذارِ من الوقوف مع سعيدٍ أمام النَّاس في العلن خاصّةً في الحيّ أو أمام المدرسة ، وأعدك أن يبقى هذا الأمر سرّاً بيني وبينك ، لكنْ . . عليك الالتفات والاهتمام بامتحانك الآن ، وأعدك أن أبذل ما بوسعي في المستقبل من أجل تحقيق آمالك .

صمتت الأمّ قليلاً ثمّ عاودت حديثها مع ابنتها بعد أن وضعت يدها على خدّها في حنانٍ وشفقةٍ وقالت لها : ظنّي الحسن بك كبيرٌ يا مريم . . . ولن أقصرّ في أيّ طلبٍ أنت بحاجةٍ إليه . . .

ابتسمت مريم في وجه أمّها ، وانفرجت في نفسها مشاعر

الطمأنينة والثّقة ، وراودها إحساسٌ مشرقٌ بالسَّعادة والأمان. . . وانبجس في نفسها للمرَّة الأولى في حياتها شعورٌ عميقٌ يفصح عن علاقةٍ جديدةٍ وجديَّة مع أمّها ، إنَّها لم تعدْ مجرد أمَّها فقط. . ! وإنّما صديقتها الَّتي تبثّها أنينها وأحزانها ، وفرحها وترحها وكلّ ما يشغل بالها .

عادت مريم إلى توازنها النّفسي من جديدٍ ، وتنفست الصعّداء بعد أن انقشعت غيمة الحذر والقلق ، بينما أمّها اتخذت قراراً لتوّها بالذّهاب إلى بيت جارتها من أجل رصد ما يدور في خلدها تجاه مريم ، ومنع أيِّ خاطرٍ من أن يترجم على لسانها الحادِّ كشفرةِ السّكين فتنال من سمعة مريم وبراءتها .

انطلقت الأم إلى منزل جارتها تاركةً مريم وحيدةً في المنزل ، مغتنمةً الوقت قبل عودة الأب من عمله. . هنا شعرت مريم أنَّ وجودها في الحياة أصبح له معنىً ، وبدأت تشعر بذاتها وقيمتها كابنة ، وكفتاةٍ مسؤولةٍ عن تصرفاتها ، ولها حريّة الاختيار ، ومطلق الاستجابة لصدىٰ مشاعرها ، فأمُّها كانت ليّنة الجانب معها ، عفيفة اللّسان عليها ، ومتحفظةً معها جداً في بعض الأمور ، وتتمتَّع بقدرةٍ على الحبِّ لا حدود لها ، ولعلّ ذلك مما يزرع بذور الأمل والأمان في نفوس الفتيات في مثل هذا العمر. . . بينما كان أبوها شديد الفظاظة ، قاسياً عنيفاً وكان يرعبها رعباً تكاد تشعر أنّه رعبٌ قدسيٌّ

لجلالة مكانة الأبّ ، لكنّها كانت تدرك في الوقت ذاته أنَّ وراء قسوة أبيها تكمن طيبةٌ ونقاءٌ لا حدود لهما ، حتى أخوها شفيق ، كان أخاً تقليدياً متّسماً بالعطف والشّفقة . . . ومن المؤكّد أنَّ مريم في النِّهاية كانت تدرك أنَّ أمّها امرأةٌ مميّزةٌ تحبُّ الاستئثار بها على الأقلّ . . .

بعد هذه التّداعيات الّتي خالجت عقلها ، انحرفت مريم إلى مرآتها وجلست أمامها تتأمّل وجهها كالعادة . . ! ثم تنّحت عن المرآة جالسةً على طاولتها داخل غرفتها ، ورفعت يدها اليمنى فوق الطّاولة ووضعتها أسفل ذقنها ، ثمَّ فتحت حواراً مع نفسها بصوتٍ مهموسٍ :

ـ أخبرت أمّي بالقصَّةِ ، فهل تستطيع مساعدتي في المستقبل ؟ . . أظنّ أنها تستطيع . . فهي امرأةٌ ذكيةٌ وتعرف كيف تتصرّف في الوقت المناسب .

ـ على أيَّةِ حالٍ لا ينبغي أن أرهق نفسي بكثرة التفكير ، بل يجب الإقلال من ذلك حتَّى أعطي الأمور حجماً وزماناً يناسبها .

ـ يجب أن أعيش على الأمل الّذي يحيا بين الحين والآخر داخلي لأنّني به أتخطى كلّ عقبةٍ تقف حائلاً بيني وبين ما أصبو إليه .

انطوت مريم بإلحافٍ تحت غطاء نفسها وكلّها عزيمة على النَّجاح والمثابرة طاردة اليأس والفشل لأنَّها أدركت أنّ الفشل يكون عندما يستسلم الإنسان لحبال اليأس مانحاً لها الحريَّة الكاملة للسيطرة

عليه ، فالإنسان يكابد في سبيل آماله ، هكذا فطره الله تعالى منذ بدء الخليقة .

ثمّ اسْتلقت مريم على سريرها لتمنح جسدها المرهق ، وعقلها المتعب قسطاً من الرّاحة ، سارحةً ببصرها تتأمّل في سماء الغرفة ، همست لنفسها بصوتٍ مسموعٍ : غداً ستشرق الشّمس ، وستغني الطيّور . .

لم يَدُرْ في خلدها حينها أنّها ستواجه المصاعب والأهوال ، فعقلها الغضّ الطريّ ، وتفكيرها الّذي لا يستطيع تجاوز أحلامها المتواضعة ، لم يكونا قادرين على فكّ رموز الغيب المنتظر أو استشراف المستقبل .

بصدق محبتها ، وإخلاص نواياها توسّمت الخير والسعادة وتفاءلت بالحبّ فعادت لا ترى من يشبهها أو يشبه حالها ، ولن يكون هناك إنسانٌ آخرٌ يسكنُ في قلبها غير حبيبها سعيد. . . ولا يشفي غليلها أمنياتها إلاّ أن يجمعها القدر معه اجتماعاً متواصلاً لا يتخلّله فراق .

* * *

أغاريد الفرح

في صباح يومٍ صيفيٍّ صافٍ من ندب السّحب ، تسلّقت الشّمس السّماء ناثرةً ضوءها على الدّنيا ، معلنةً ولادة يوم الثّلاثاء الخامس عشر من شهر تموز عام ١٩٨٥ للميلاد موعد صدور نتائج الشّهادة الثّانويّة العامّةِ .

كان النّاس على أهبة الاستعداد لاستقبال هذا الحدث الجمِّ في حياة أبنائهم . . . يومها لم تكن الحواسيب منتشرةً في المدارس أو البيوت أو المكتبات ، ليتلقّى الطّلبة نتائجهم وهم ينتظرون صدورها في بيوتهم عبر النّت كما هو معهودٌ اليوم .

روعة الحياة الماضية ، والسّنوات البعيدة المنصرمة ، تكمن في بساطتها وعفويتها وهي ترتدي ثوب القناعة والبركة ، والرتابة في كلّ شيٍ حتّى في أسلوب المشي بالطّرقات . . ليس عجباً أن نقول : التكنولوجيا الحديثة والتّقنيات الالكترونيّة المنتشرة الآن ، حرمتنا لذّة السّعادة ، وكرّست في حياتنا العلاقات الّتي أقصتنا ـ بنسبٍ متفاوتةٍ ـ عن الإحساس بدوران الزّمن ، وانسياب الأيّام بمظاهرها المستساغة لطبيعتنا البشريّة ، وحرمت هذه العلاقات من التّماسك

الاجتماعي ، والطَّهر في المقاصد والسّلوك . . . !

يالروعة المشهد ، عندما كان الطّلبة ـ ذكوراً وإناثاً ـ يلتفّون حول بعضهم ويسيرون جماعاتٍ ، ويتوافدون إلى أبواب مدارسهم ينتظرون ساعة الصّفر وتعليق النتائج في بهوِ المدارس ، . . منهم من كان يرافقه أحد أهله . . وما تكاد تصدر النتائج حتّى تسمع صيحات الاحتفاء بالنّجاح من هنا وهناك ، أمّا بعض الطّلبة فتراه مكسوف الوجه ، مطرق الرأس مظلم المحيّا ، صامتاً واجماً . . ! فتعرف بالسّجيّة أنّه راسبٌ أو غير راضٍ عن درجاته الّتي حصل عليها . . . !

أجل . . . كانت الحياة أرحب وأجمل في ظلّ تلك المظاهر والاحتفاءات التي كانت تزدان بها .

وها هي ذي مريم تكاد تطير فرحاً وابتهاجاً ، كأنّ الأرض لم تعد تسعها ، أو الفضاء الكوني لا يستوعب سرورها ، وتهرع سريعاً إلى أقرب حانوت من مدرستها لتزفّ عبر الهاتف الأرضيّ خبر نجاحها ، لقد نجحت يا أمي الحبيبة وحصلت على ١٩٠ درجةٍ . . . ! وفي المنزل أطلقت أمُّها زغاريد الفرح ابتهاجاً وسروراً . . . بينما كان مجموع علامات سعيد ٢٠٥ درجةً . . !

عاد قلب الحبيبين ـ سعيدٍ ومريم ـ عارماً بالفرح والسّعادة ، التقيا يومها ، وانطلقا يستعجلان الخطا نحو المكان المعهود في لقائهما ، بينما كانت جموع الطُّلاب الّتي تكتظّ بهم شوارع المدينة

تتفرّق متباعدةً عن بعضها البعض تتخلّلها أصواتُ الهمس المسموع بالمباركات والتّهاني مع بعضهم بعضاً .

في الحديقة جلس الحبيبان تحت ظلِّ شجرة وارفة الظّلال ، على مقعدٍ خشبيٍّ مطليٍّ بالدّهان الأخضر ، كانت الأشجار الباسقة ، والنَّباتاتُ المصفوفةُ بشكلٍ منتظم في أركان الحديقة تبث رطوبتها في الهواء الطَّلق ، فتدغدغ لهيب الحرارة المنبعثة من أشّعة الشّمس الحارقة ، فتجعل الأجواء أكثر لطفاً ووداعةً .

تبادل الحبيبان التَّهنئة بالنّجاح ، ثمّ صمتا قليلاً تاركان لعقليهما الحريّة الكاملة ، ومُرْخيان عنانَي قلبيهما ليطوفا بين المشاعر الجيَّاشة ، والأفكار العاطفيّة بطريقةٍ يستطيع من خلالها النَّاظر الإلمام بعشقهما ، ووَلَهِهِمَا ببعضهما .

كان كلٌّ منهما يُرَدِّدُ وجيبُ قلبه لحنَ الحبِّ الهادىء بنشوةٍ أخّاذةٍ ، وسعادةٍ بالغةٍ ، حيث تفاعلت أحاسيسهما مع نغمة أوتار قلبيهما الهائِمَيْن . . !

كلُّ شيءٍ أصبح بنظرهما جميلاً حتّى دبيبُ النّمل على أرضِ الحديقة الترابيّة . .

ـ بماذا تشعرين الآن يا مريم ؟ . أنا أشعر بالفرح العارم ، وبالجنون المطلق الممتزج مع الطَّبيعة المتماوجة بجمالها . . .

قالت : حقّاً أشعر بأنَّ السَّماء أهدتني مفاتيح الجنَّة السَّبعة ، أو أنّها أهدتني سيمفونيّةً مقدَّسةً تردِّدُ ألحانها أفواه الملائكة . . . !

ـ وبماذا تشعر أنت يا سعيد ؟ . . .

ابتسم سعيدٌ ابتسامة رقيقةً بدت من خلالها أسنانه البيضاء ، وقال : أشعر بأنّ البحر أهداني حوريَّةً من حوريّاته . . ! دهشت مريم ، ونظرت في وجه سعيدٍ ممعنةً في تفاصيله وماسحةً بيدها اليسرىٰ على صفحات وجهها النَّاعمة وقالت : حوريّة البحر . . ! سمعت عنها كثيراً في الحكايا والأقاصيص وأنا صغيرة ، وهي ـ كما أعلم ـ كائنٌ خرافيٌّ غير موجود حقيقةً ، فلماذا تُشبِّهُني بها . . . ؟

أطرق سعيد هنيهةً نحو الأرض ، ثمَّ رفع رأسه مثبّتاً بصره نحو مريم : اعلمي يا حبيبتي . . . أنّ حوريّة البحر رمزٌ للطهارة والعفاف والحبّ العذريّ البريء من النوايا الخسيسة . . كحبّي لك . . !

ثمَّ سكتت الأفواه ، ورنت العيون إلى بعضها بعضاً ، ترسل عبر أثيرها أشّعة الشَّوق والحنين . . وشرعت مريم تفكّر في كلمات سعيدٍ مغلقةً شفتيها للحظاتٍ .

وبعد صمتٍ استمرّ لوقتٍ قصيرٍ ، قالت بصوتٍ مهموسٍ ممتزجٍ بشيءٍ من الاسترخاء والاستسلام أمام سعيد : أحبُّك يا سعيد ، ولن يثمر هذا الحبُّ إذا تجرّد من التبادل الحسيِّ واللِّقاء والحديث بيننا . . ! قالت كلماتها هذه ثمّ صمتت للحظةٍ وعاودت حديثها

بصوتٍ مهموسٍ : إنَّ حبِّي لك لا تغيب عنه شمسٌ ، ولا نهاية له إلاَّ الموت القاهر الّذي لا حيلة لنا بدفعه . . .

ثمَّ وضعت يديها على كتفه ، فمدَّ سعيدٌ يده مداعباً خصلات شعرها وماسحاً على وجنتيها المتلألئتين بأصابعَ هادئةٍ . . ! فاستمالت برأسها حناناً على صدره ، وراحا يعزفان اللحن الهادىء الشجيَّ بشعورٍ لذيذٍ . . ! إنَّه الهُيام والشَّوق والدّفءُ العاطفيّ الشَّهيُّ . . !

بيد أنهما كانا في عِصمةٍ عن شطحات الهوى ولُوثات الشَّيطان ، وكان سعيد أحرص على حبيبته من نفسه . . !

بعد أن استفاقا من غشيان الحبِّ وهيامه ، نظر سعيد إلى عيني مريم للحظاتٍ ثمَّ قال لها : مهما وصفت مشاعري نحوك يا حبيبتي فلن أجيد وصف ذلك . . . أحبُّك يا مريم كلَّ الحبِّ ، ويبدو لي أنّني مهما انتقيت الكلمات المؤثِّرة ، فلن أكون قادراً على شرح مشاعري نحوك ، ولو بكلامٍ قليلٍ ممَّا أحسُّه في داخلي من حبٍّ كبير . . !

عاد وصمت للحظة ، ثمَّ قال وهو يرنو إلى شفتيها الورديتين : أجل . . أحبُّك . . فهل تحبينني . ؟ . أغلقت مريم شفتيها ونظرت إلى وجهه مبتمسةً وأجابته : وأنا أيضاً أحبُّك ؟! . .

وبذكائها الأنثوي المدلَّل ، أدارت دفَّة الحديث في اتجاهٍ آخر حذراً من الغرق في العاطفة الجيَّاشة ، حيث تقابلت المقل ، وعلا

لهيب الشفتين . وبادرت سعيداً بالسُّؤال : قلْ لي . . ماذا ستدرس بعد نجاحك ، وأيَّ فرعٍ في الجامعة ستختار . . . ؟

جاوبها سريعاً : الفلسفة في جامعة دمشق ؟

تفاجئت من إجابته ، وشدّت جسمها بقوَّةٍ على المقعد وقالت : الفلسفة . . . وأين ؟ في جامعة دمشق ، معنىٰ ذلك أنَّك ستسافر وتتركني هنا وحيدةً ، أكابد حبَّك ، وأشقىٰ لبعدك عنّي ؟!

أحسَّ سعيد بما تكنُّه مريم في قلبها له من حبٍّ كبيرٍ ، وأسعفته بديهيّته ببعض الكلمات الَّتي تخفّف غلواء نفسها .

لاغضاضة في الأمر يا حبيبتي . . بل سيزداد قلبي اشتعالاً بحبِّك ، كما أنَّ شوقي إليك سوف يستحيل إلى غرامٍ مضطرمٍ لا يستكين إلاَّ برؤيتك مجدداً ، ألم تسمعي ما ورد في القول المأثور :

زُرْ غِبّاً تزدد حبّاً . . ! ولا إخالك تخالفينني الرَّأي ، أمنيتي أن أحمل إجازة جامعيَّةً في الفلسفة ، أعشق دراستها كما أعشقك أنت . . !

تراخت مريم بجسمها فوق المقعد الخشبيّ ، واضعةً رجلاً على أخرىٰ مستكينةً لأمنية سعيدٍ كما يستكين القمر لضوء الشّمس ، وأخبرته : أنَّها ستكمل دراستها في دار المعلمات حسب رغبة أمِّها وأبيها لتحصل بعد تخرّجها مباشرةً على وظيفة معلِّمة .

كان الوقت يمرُّ بسرعةٍ وهما غارقان في تبادل الكلام والأشواق . . وعندما آذنت الشَّمس بالمغيب . . وأوشكت أن تختفي وراء الأفق ، انتفضت مريم واقفةً وربتت بكفيها على ركبتيها طالبةً من سعيدٍ الاكتفاء اليوم من تعاطي الحبِّ وتبادل الأمنيات ، في هذا اللِّقاء الّذي جاء تتويجاً لنجاحهما ، واستجابةً لنزق حبِّهما ، وأخبرته أنَّ أمَّها لا شك أنها ستكون قلقةً عليها كما أنَّها على أحرَّ من الجمر للاحتفال بنجاحها .

هزَّ سعيد رأسه ببطءٍ إشارةً لموافقته على العودة ، ورافقها إلى منتصف الطَّريق المؤدي لمنزلها ، فخفق قلب العاشقين وتبادلا نعوت الحبِّ والجمال . . . وافترقا دون ترددٍ خوفاً من أن يراهما أحدٌ يفسد عليهما تواصلهما .

* * *

« سمّاعة الهاتف »

لعبت المصادفة دورها في تقريب المسافات بين العاشقين ، ممّا جعل الأمل يكبر في نفسيهما ، فقد مارست أمُّ سعيدٍ دوراً إيجابياً ورائعاً في هذا الأمر .

كانت أمّ سعيدٍ على معرفةٍ سطحيّةٍ بأمّ مريم منذ أيّام الصِّبا ، ولهذا ـ بناءً على طلب سعيدٍ وإلحاحه ـ لم تر أمّه بُدّاً من رفع سمّاعة الهاتف والاتّصال بأمّ مريم مهنئةً بنجاح ابنتها ، وتمكين أواصر معرفتها بها .

تبعاً لما حصل أصبحت الأُمَّان على درايةٍ بالعلاقة العاطفيّة بين سعيدٍ ومريم . . . فقد آثرت أمّ مريم من خلال وجهة نظرها الشخصيّة أن تسمح لابنتها أن تتحدث مع سعيد عبر الهاتف ، لأنَّه الطَّريق الأسلم لهما بدلاً من اللِّقاء خفيةً ، وهو أمرٌ بنظرها يدفع عنها القلق ووجع الرأس ، خاصَّةً أنّ والد مريم مشغولٌ بعمله طوال النّهار ، أمَّا أخوها شفيق فهو في غيابٍ مستّمرٍ عن المنزل بحكم تطوّعه في الجيش حسب رغبته رغم أنَّه وحيدٌ ، وكان يخدم في منطقةٍ نائيةٍ بعيدة عن المدينة ، ولا يأتي إلاّ مساء الخميس ، ويعود صباح السّبت من كلّ أسبوعٍ .

أمّا أبوها فهو حادّ الطّبع والمزاج ، حيث كان يعمل مراقباً على العمّال في مرفأ اللاذقيّة ، ولا يؤوب من عمله إلاّ عند مغيب شمس كلّ يومٍ ، باستثناءِ يوم الجمعة ، يوم العطلة الأسبوعيّة .

وكانت أمّ مريم تحرص كلّ الحرص على سريّة العلاقة التي تجمع بين مريم وسعيد ، وتحاذر أن يُفتضح أمرهما بين الناس ، أو يصبح حديثاً تلهج وتخوض به الألسنة المغرضة في الحيّ. . . فلا إفلات عندئذٍ من غضب الأب ، وحماقة الأخ الّذي من صفاته الغيرة الزائدة على العرض والشّرف فكان يغار على أخته مريم من هبوب النّسيم الرّقيق. . ! فكيف لو تناهىٰ إلىٰ سمعه أمرٌ من هذا القبيل ؟

كان سعيد يتحدّث مع مريم عبر الهاتف كلّ يومٍ مطمئناً عليها في ساعةٍ متأخّرةٍ من وقت الصّباح قبل انتصاف الشّمس في كبد السّماء ، يتحدّثان بانطوائيّةٍ غراميّةٍ على عالمهما المغلق من دون التأثير في الحالة النفسيّة لأحدٍ منهما .

أبوه في بعض الأحيان كان يبصره وهو ممسكٌ سمّاعة الهاتف ، غارقاً في الحديث مع حبيبته ، فيهزُّ برأسه متمتماً وشفتاه تُعبّران عن رضاه السّاخر من هذه العلاقة العاطفيّة بين مريم وابنه سعيد فيقول :

عشنا وشفنا ؟!

بينما كان سعيد ينظر إلى أبيه باستحياءٍ ، علماً أنّ أباه كان رجلاً ذا فهم وحكمة وذا حدسٍ صائب ، يستقرىء الأحداث من معطياتها

قبل أوانها ، فكان على قناعةٍ تامَّةٍ أنَّ هذا الحبّ لن يستمّر طويلاً نظراً لحداثة سنِّ العاشِقَين . . .

كان أبو سعيدٍ يعلم أنَّ ابنه غير مؤهلٍ للخطوبة أو الزَّواج بعد ، لأنَّه يقف على عتبات المستقبل في بداية دراسته الجامعيَّة ، كما أنَّه سيقيم في دمشق من أجل تحصيله الجامعيِّ ، وكما يقول المثل البعيد عن العين بعيدٌ عن القلب . . ! فالإقامة في البعد تحدُّ من غلواء العاطفة أحياناً ، وتفتح في النَّفس أفاقاً معرفيَّةً وحسيَّة تتوزَّع من خلالها العاطفة في الزَّمان والمكان .

لكنّ أبا سعيدٍ آثر كتمان هذه الحقيقة ولم يبح بها أمام ابنه حرصاً على مشاعره الجيّاشة تجاه حبيبته مريم ، كما أن الحياة علمّته وهو في هذا السِّن الكبير ، أنَّ الفتاة تبقى عرضةً للخُطَّاب متى نضجت وبانت معالم أنوثتها خاصةً إذا كان جميلةً ورشيقةً كمريم . . !

* * *

رأسي يوجعني... !

ما أسرع الأيّام بالإدبار ؟!.. فالغد سرعان ما يصبح حاضراً ، والحاضر يستقرّ في الماضي !.. ها هو سعيد يتأهب للسَّفر إلى دمشق مع بداية العام الدِّراسيِّ ، يشدَّ أمتعته ويهيء حاجاته الضّروريّة في حقيبة سفرٍ متوسطة الحجم ، وأبوه قد ضمنَ له سكناً هناك في المدينة الجامعيّة .

أصبح فؤاد سعيد فارغاً إلاّ من الهمّ والحزن ، يتساءل في نفسه كيف سينأىٰ بعيداً عن موطن الطفولة والصَّبا وكنز الذّكريات.. !

كان دوماً يتكلم مع نفسه بصوتٍ خفيض يفيض حنيناً.. لقد ألفت مريم حتّىٰ سرىٰ حبُّها في دمي ومن المحال العيش بعيداً عنها ؟...

وغدا كلَّما تفكّر في ذلك أوجس خافقاً بين جوانحه يدفعه إلى نظم الشّعر فيها ، فنثر على صفحاتٍ دفتره الكلام البليغ بالوصف والتّشبيه المفعم بالحنين عذاباً واحتراقاً .

أمَّا مريم فبدت كثيرةَ الوجوم ، تعتريها كآبة تحسُّ بداخلها باختناق وهي تكابد الحسرات لغياب سعيدٍ وبعده عنها .

في خضّم هذه الغيوم السوداء المثقلة الّتي أصابتهما برعود

الدَّموع وببروق الحزن العاصف ، كان حديثهما على الهاتف كلَّ يوم فيه ملاطفةٌ ووداعةٌ ، وتخفيف لأعباء الكبَد والكَمد .

وكان العاشقان إذا ما اللَّيل أسدل رداءه الأسود على الدّنيا يصبحان أكثر قلقاً وجزعاً ، ففي دياجيره يسهران ـ كلٌّ منهما على حدة عبر نافذة غرفته ـ يناجيان القمر ، يتأمَّل كلٌّ منهما طيف الآخر منزرعاً بين النَّجوم المتلألئة السَّاهرة ، فيتجلى كأنّه كوكبٌ دريٌّ يغشى نوره العيون يضيءُ ظلمة القلوب طارداً منها الحزن والأسى ، فإذا ما تبيَّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود للفجر ، أطبق النُّعاس على أجفانهما فيخلدان في نومٍ عميقٍ .

وقضى القدر للمصادفة أن تلعب دورها القاسي في حياة العاشِقَين من جديد ! ففي عصر يوم الخميس الثالث عشر من شهر أيلول قبل سفر سعيد بيومٍ وليلة ، دلف شفيق شقيق مريم من باب المنزل كونه في إجازةٍ مغادرةٍ إلى صباح السَّبت كالمعتاد كلّ أسبوع . . . فاستقبلته أخته مريم وعانقته فرحاً بقدومه ، فعمد إلى تقبيلها من جبينها مباركاً نجاحها واعداً إيَّاها بهديَّة تليق بنجاحها المتفوَّق .

وعندما اجتمعت العائلة على مائدة العشاء ، أسرَّ شفيقٌ إلى أمِّه أنّ صديقاً عزيزاً له من زملائه يخدم في نفس الكتيبة العسكرية معه أوشكت خدمته الاحتياطيّة على الانتهاء بعد عدَّة أيام ، سيحلّ ضيفاً

عليه غداً لتناول طعام الغداء ، بعد زيارته لمنزل خالته الّتي تقطن في الحيّ المجاور لبيتهم . . !

رحبّت الأمّ بالأمر ، كما باركه الأب .

وحتّى ساعةٍ متأخرةٍ من ليلة الجمعة كانت الأمّ مشغولةً في المطبخ تعدّ العدَّة للضّيف القادم غداً ، تساعدها ابنتها مريم . . . كانت مريم تدرك أنّ حبيبها سعيدٌ سيسافر صباح السَّبت إلى دمشق ، وليس بودّها الإنشغال عنه لأيّ سبب ، فبدت كئيبة الخاطر لانشغالها مع العائلة بزيارة الضّيف غداً . . !

بعد ظهيرة اليّوم التّالي ، خرج أخوها شفيق لملاقاة الضّيف في الموعد والمكان المتفق عليه ، بينما العائلة [أمه ، وأبوه وأخته مريم] أسرهم التّرقب وهم ينتظرون قدوم الضّيف بغتةً ، بعد أن هيأت الأمّ ما يليق بهذا الضيف من وليمةٍ . . طعامٍ وفاكهةٍ وحلوىٰ . . . شفيق حدثهم مساء البارحة عن صديقه [حامد النَّواريّ] هو من مدينة الرَّقة ، والده وجيهُ عشيرتهم من أكابر تجّار الماشيةِ هناك إلى جانب امتلاكه للضياع والأراضي البعليَّة الشّاسعة وامتلاكه معملاً للألبان والأجبان ، فصديقه الضّيف ابن عائلةٍ مرموقة المكانة ، ورفيعة القدر والمنزلة ، وهو حسن العشرة ، طيّب القلب ، كريم السمّت ، تنطوي نفسه على قدرٍ كبيرٍ من الاعتزاز من غير صلفٍ ولا تكبرٍ .

وما هي إلا دقائق معدوداتٍ ، حتّى كان الأب يقوم بمراسم الاستقبال اللائقةِ بالضّيف ترحيباً واحتفاءً بقدومه .

في بهوِ المنزل (الصالون) جلس الجميع يتداعىٰ بينهم الحديث ، كان شفيق أوّل من أطلق شرارة الكلام ، فعرف الضّيف ـ بادىء ذي بدءٍ ـ علىٰ أبيه وأمّه وأخته مريم ، وبالمقابل عرّفهم علىٰ صديقه حامد الّذي يعتّز بصداقته .

كان حامد معتدل القامة يميل إلى الطّول ، واسع الجبين ، أسمر الوجه ، أفطس الأنف ، ذا ابتسامةٍ لا تفارق شفتيه . . . عندما وقعت عيناه على مريم طغتِ صورتها على قلبه ، فبدا مشدوهاً بجمالها ، يسرق بصره حفنات من أزاهير التأمل في أنوثتها الرشيقة . . عيناه الضيّقتان الشبيهتان بحبتي فستق ترمقانها على حين غفلةٍ من أبصار مضيفيه . . ! يتأمل شفتيها الرقيقتين ، وعينيها السّوداوين الكحيلتين اللّتين أشبه بعيني ظبية عنقاء ، أو كأنها يمامةٌ حقًّا فارشةً جناحيها الزّاهيين . . . شعرُها الكستنائيُّ المتغازل على كتفيها يزيدها روعةً وبهاءً . . ! قال في نفسه : يا لفتنتها الأخّاذة . . يالروعة أنوثتها اللّذيذة الّتي تسرّ النّاظرين ، كأنّها لوحةٌ جميلةٌ رسمتها يد فنانٍ مبدعٍ تسلب الألباب . . . فتاةٌ ناضجةٌ للزواج . . ! استرعت نظراته الحثيثة انتباه مريم . . . ففهمت من عنوانها أنّه معجبٌ بها يرمقها بحدة فالتهبت نفسها غضباً ، ووثبت شرارة إلىٰ الأعماق السحيقة في

عينيها . . ! فعقدت حاجبيها وحملقت في وجه الضَّيف . . . ولكن . . سرعان ما خبت تلك الشّرارة عندما تكهرب وجه الضَّيف وأشاح ببصره عنها حياءً . . . ! ولعلّ هذا لأمر شدَّه للإعجاب بها أكثر . . . !

كانت الأمّ تنظر إلى مريم ، فاستنكرت إلحافها بالنّظر إلىٰ وجه الضّيف حملقة وتحديقاً شديدين ، وأنفاس الغضب تزفر من تقاسيم وجهها فشحب وجه الأمّ ، وفكرَّت أنْ تحوّل الموقف نحو منعطفٍ آخر . . فقالت لمريم على مسمعٍ من الجميع : هيّا . . قومي يا ابنتي معي إلى المطبخ لنجهز مائدة الطّعام ؟ . .

بارك الأب هذا الأمر وقال بدوره : هيّا يا مريم أرينا شطارتك في إعداد مائدة الطَّعام وترتيب الأطباق . . !

بعد لحظاتٍ قليلةٍ علت وشوشات الأمّ مع ابنتها في المطبخ ، وكادت أن تنتهي إلىٰ سَمع الجالسين في الصّالون . . ! لكنّ الأمّ طلبت من ابنتها خفض صوتها ، وأسّرت مريم لأمِّها ما لاحظته من نظرات الضَّيف إليها . . !

فأيدتها أمُّها قائلةً : فعلاً . . انتبهت إلى شيءٍ من هذا القبيل . . . وقلت في نفسي : ربمّا كان الضَّيف مستغرباً من جلوسك وأنت صبيّة في عمر السابعة عشرة . . ! أو أنّ عاداتهم وتقاليدهم لا تبيح ذلك . . !

اتفقت مريم مع أمّها أن تتظاهر بوجع الرّأس الشّديد مبرراً لعدم جلوسها على مائدة الطّعام في حضرة الضّيف . . !

باركت الأمّ الفكرة ووافقت عليها ، حذراً من أن يميل قلب الضّيف إليها إعجاباً وشغفاً ، خاصّةً أنّ ابنها شفيق أخبرها مساء الأمس : أنّ حامداً سيبقى في منزل خالته عدّة أيّام بغية البحث عن عروسٍ مناسبةٍ له من هذه المدينة . . ! وذكرت له خالته يوماً وجود عدّة فتياتٍ جاهزاتٍ للخطوبة والزّواج . . . وما عليه إلاّ اختيار من تعجبه منهنّ . . ؟!

نجحت الحيلة الّتي دبّرتها مريم للنجاة من براثن نظرات الضّيف . . . فليس لأحدٍ في قلبها مكانٌ غير سعيدٍ . . . ولا ترضى عنه بديلاً . . !

ولاحَ في خاطرها إصرارٌ على عدم إخبار سعيد بما كان من أمر هذا الضّيف حتّى لا يأخذه الغضب ، أو تعصف في نفسه نار الغيرة فيتعكّر سفره إلى دمشق ، وكما يقول المثل الشعبيّ : لا تزدّ الطّين بللاً . . ؟

لمّا استأذن الضّيف بالانصراف بعد تلك الوليمة الّتي أقامها شفيق على شرف صديقه . . اعتبرت مريم الأمر غيمة صيفٍ وعبرت ، وظنت أن هذه الذكرى العابرة ستغيض في باطن الذّاكرة وتتبخّر في

درج النّسيان كما تغيض مياه الأمطار في باطن الأرض ، ولا يعود لها أثر فوق سطحها . . !

لكنَّها لم يدر في خلدها على الإطلاق ، أنَّ اللهَ تعالى سيحدث يوماً (ما) بينها وبين هذا الضّيف الشّاب العابر أمراً كان مفعولاً . . . ! ؟

* * *

« الرّسالة وقطرميز العسل »

مساء يوم الجمعة. . . كان الحنين والحزن يُقطّعان كبد سعيدٍ ، والهمُّ يكسو أحشاءه ، وبينما كان منهمكاً في إعداد حاجياته ، وما يلزمه من أشياءَ لسفره الدّراسيّ ، يحيط به جميع أفراد أسره ، أمّه وأبوه وأخوه طارق ، وأخته سعاد ، أخوه وأخته يصغرانه سنّاً. . . فجأة علا رنين الهاتف ، فأدرك سعيد للوهلة الأولىٰ أنّها مريم مغتنمةً غياب أبيها وأخيها لتودّعه قبل سفره الذي سيكون في ساعةٍ باكرةٍ من الصّباح. . . فهبّ من فوره رافعاً سمّاعة الهاتف بمحاذاة شحمة أذنيه ، وطرف السّماعة الآخر بمحاذاة شفتيه ، وطفق يكلّمها بصوتٍ خفيضٍ يبادلها ألفاظ الحنين والشّكوىٰ. . . سرعان ما طفرت من عينيه دموعٌ شحيحةٌ ، فعمد يمسحها بيمناه بكم قميصه. . !

حاله الدّراميّة هذه ، جعلت من أمّه وأخويه غير قادرين على حجز الدُّموع الماطرة من أجفانهم ، أمّا أبوه فكان أكثر رباطة لجأشه ، وقوة لجَنانه ، وهو الّذي خبر الحياة وخبرته ، وتقلّب في أهوالها ومشاقّها ، ومرّت عليه أحداثٌ جسام ، وعاصر حكوماتٍ

عديدةٍ ، وعايش انقلاباتٍ شتّى كونه كان متطوّعاً في الجيش تلك الأونة برتبة مساعد أوّل ، ومنذ ثلاث سنواتٍ سُرّح من الخدمة لبلوغه سنَّ التّقاعد ، وكان قد أمضىٰ عشر سنواتٍ من أيّام خدمته في دمشق ، كان في زهوة شبابه حينها . . !

خوفاً على مشاعر ابنه سعيد أمر الجميعَ إلاّ سعيداً بالانصراف إلى الغرفة الدّاخليّة في المنزل .

وما أنْ انتهىٰ سعيد من حديثه مع مريم ، وأعاد سمّاعة الهاتف إلى قاعدتها نظر إلى أبيه نظرةً ملؤها الحنان والاحترام . . . هزّ أبوه رأسه هزّاً خفيفاً وأومأ له مشيراً إليه أن يغسل وجهه ليصحو عقله ، ويثوب إلى رشده ، ولمّا عاد أمره أبوه بالجلوس إلى جانبه ليعزّز يقينه ، ويشحذ همّته ببعضِ الكلماتِ والوصايا ، وقال له وهو يحشد عواطف الغَيرة . . غيرة الأب على ابنه : يا بني . . هذه الفتاة الّتي كنت تكلّمها تحبّك وتحبّها ، وقد تعاهدتما على عدم الفراق ، أليس كذلك ؟ . .

أجاب سعيد : نعم يا أبتِ ، ولا يفرّقنا سوىٰ الموت . . !

ربت أبوه على كتفه قائلاً له : يارك الله بك وبها ، ولكن . . ليس بوسعكما إلاّ الرضا بما قسمه الله لكما . . ولا يكون التّوفيق إلاّ من عند الله ، فيجب عليك : تسليم أمرك لقضاء الله ومشيئته ، وكلّ شيءٍ في هذه الدّنيا قسمةٌ ونصيبٌ . . !

فإذا كانت هذه الفتاة من نصيبك في المستقبل العاجل أو الآجل ، فلا توجد قوَّةٌ في العالم تمنعك عنها ، وإذا لم تكن من نصيبك فليس هناك قوَّةٌ في العالم تقرّبك إليها . . ! فارضَ بما كتبه اللهُ بينكم في المستقبل ، وأعدك فور تخرّجك من الجامعة أنْ أسعى لأخطبها لك . . فلا تقلق . . . !

صمت الأب قليلاً ، ليعطي ابنه فرصة استساغة وصيته وهضمها في عقله ووجدانه . . ثمَّ قال له متابعاً :

يا بنيّ . . غداً ستسافر إلى دمشق ، فليكن بعلمك أنَّ السّفر والإقامة في الغربة جميلان جداً . . . فهما يكسبان الإنسان أشياءَ جديدةً لا يعرفها من قبل ، فمثلاً . . يفتحان أمامه أبواب المعرفة ، ويخرجانه من عالمه إلى عالمٍ آخر . . فالسّفر يعرّفه على الطّرق وأسماء الأماكن ، والغربة تعلمّه كيفية التّعامل مع النَّاس في كلِّ شيءٍ ، وتمكّنه من فتح آفاقٍ جديدةٍ للعلاقات مع الغير . . وأنت ذاهبٌ إلى دمشق العاصمة ، معنىٰ ذلك أنَّك لن تشعر بالغربة التي نقصدها ، وإنّما سوف تبقىٰ تعيش في رحاب وطنك بين أهلك وأحبابك فلا تجزع ولا تيأس . . . كن مع الله دائماً ، تجد الله أمامك ، هذه آخر وصيّتي لك ؟! .

ثمَّ دسَّ الأب يده في جيب قميصه ، وأخرج ظرفاً مختوماً يحوي رسالةً وقال له : يا ولدي ، هذه الرِّسالة أوصلها إلى صديقٍ قديمٍ لي

في دمشق من زمن خدمتي في الجيش ، هو من أهل الشّام اسمه « أبو معتّز » يملك حانوتاً على ضفاف ساحة المرجة ، هو معروفٌ هناك كالعَلَم ، ولن تجد عناءً في الوصول إلى دكانه . وكان إلى جانب الأب قطرميزٌ من عسل شهد الليَّمون مغلّفاً بكيسٍ رقيقٍ من النّايلون الشّفاف ، فدفعه إلى سعيدٍ قائلاً له : وأعطه هذا القطرميز ، وقلْ له : والدي أحبَّه لك .

دسّ سعيدٌ الرّسالة في الجيبِ الخلفيّ من بنطاله ، ووضع قطرميز العسل ضمن أغراضه قائلاً : أمرك يا أبتِ اعتبر الرسالة والأمانة قد وصلتا إلىٰ يد صديقك في دمشق .

تنحنح الأب قليلاً ، ثم نهضَ واقفاً تاركاً لابنه مجالاً ليتحرك بحريّة داخل البيت قبل انتهاء الهجيع الأوّل من اللّيل ، ولمعت في وجهه ابتسامةٌ ممزوجةٌ بالحنان والشّفقة ، وقال له : قمْ يا بنيْ ، وانظر ما أنت فاعله . . ؟

خلد سعيد إلى ركن مريحٍ داخل غرفته منطوياً على نفسه ، تملكه إحساسٌ بنزعاتِ الحبّ والهوىٰ وهو يكابد في بحار عشقه وغرامه . . دفعته عاطفته الهتون إلى أن يخطّ رسالةٍ إلى مريم قبيل سفره ، لتكون شاهداً عمّا يجيشُ في فؤاده من آلام يعتصر فيها حزنه ، مهوناً عليه فراقه فقد كان يشعر بعذابها هي الأخرىٰ وآلامها للفراق .

ولمَّا انتهى من كتابتها طواها طوياً رتيباً ، ودسّها في ظرفٍ

وختمه بإحكام ، ثمّ نادى أمَّه كي يُسرَّ إليها أمراً على انفرادٍ بعيداً عن سمع أخته وأخيه ، فطلب من أمِّه راجياً أن تخبر مريم هاتفيّاً عن وجود رسالةٍ في المخبأ السِّريّ لرسائلهما المتبادلة ، وهذا المخبأ كان عبارةً عن كوّةٍ صغيرةٍ في الأرض يعلوها حجرٌ صغيرٌ في ظلّ سور حديقة أحد المنازل قريباً من منزل مريم ، وكان ساعي البريد بينهما الحجر ذاته الّذي يغطّي الكوّة ، فإذا كان الحجر مقلوباً على وجهه المدبدب بنتوءات متعرّجة ، يفهم على الفور وجود رسالة في هذا الصّندوق البريديّ الرّمزيّ للعاشِقَين . . . !

في السَّاعة الثّانية من صباح السَّبت ، كان سعيد على متن الحافلة التي ستقلّه إلى دمشق ، وما إنْ دَوى محرّك الحافلة تأهباً للإنطلاق ، حتّى مدَّ سعيد يده من نافذة الحافلة ملوّحاً لأبيه وأخيه طارقٍ ، وقبل دوران عجلات الحافلة ، تقدَّم الأب بعض الخطوات صوب النافذة مبالغاً بوصيته لابن بالانتباه على نفسه ، ولا ينسى المرور عند صديقه الشّاميّ أبي معتزٍ وتسليمه الرّسالة وقطرميز العسل .

ليس عجباً عند الوداع . . وداع المسافر أن تجود العينان بطفرات الدُّموع تعبيراً عن المودَّة وألم الفراق .

طوال الطَّريق كان سعيد كاتماً أنفاسه عمّا يجول في نفسه من حزنٍ ، يسترجع بلاحظَيه طيف مريم ، مستحضراً من خياله وجهها

الصَّبوح الرَّيان ، مدندناً عقله ببعضِ الصُّور المتسرّبة من خزّان الذّاكرة ، وهما في شقوةٍ معاً ينثران الحبّ والهيام عند اللّقاء . . . أو يتردّد على أسماعه صدىٰ صوتها الشجيّ تقول له : أحبُّك . . كما لو أنّه يحسّ بذلك حقيقةً .

ومن بين ثنايا الجوِّ المحمومِ بالضّجيج داخل الحافلة من جراء وشوشات الرّكاب بعضهم مع بعض بصوتٍ مسموع ، أو من انبعاث هدير المحرّك ، كان سعيد يدمدم مع نفسه ببعض الكلمات السّارحة في دوحة الحبّ وفتونه ، تتناغم مع دقات قلبه الّذي عادَ أكثر استقراراً ، وهدأ فورانه العاطفي حول حياض الحزن وآلامه . . حقّاً إنّه شعورٌ أليمٌ أن يعيش المرء وحيداً بعيداً عمّن تهواه نفسه . . !

وما إنْ تجاوزت الحافلة منتصف الطّريق المؤدي إلى دمشق ، حتّى خلد من غير شعورٍ أو إرادةٍ إلى نومٍ عميقٍ .

أمّا مريم في ذلك اليَوم المشهود ، هُرعت علىٰ حين خفيةٍ من النّاس واستخرجت الرّسالة من مخبئها السّريِّ بعد أن تلقّت من أمّ سعيد الإشارة عبر الهاتف ، لم تفتحها وتقرأها لتوّها ، وإنّما أخّرت ذلك لوقتٍ يخيّم فيه الهدوء على المنزل ، بعد أن تنتهي من مساعدة أمّها في أعمال المنزل لأنَّ من عادتها قراءة رسائل سعيد متأنيةً مستحضرةً مشاعرها الجيّاشة ، متحيّنةً مجلساً آمناً في غرفتها ، بعيداً عن أعين الرّقباء حتّى أمّها . . !

كما كانت تحاكي طيف سعيد الّذي يتجلّى بين حروفه وكلماته ، وربّما انزاح ستارٌ أمامها عن مشهدٍ دراميٍّ في الخيال تفوح منه رائحة الحبّ الشّهيّ . . ! وفي وقت الظهيرة ولجت من غير انتظارٍ إلى غرفتها ، جلست قرب النّافذة ، وشرعت بقراءة الرّسالة وهي تشتمُّ عبر سطورها رائحة عطر سعيدٍ الّذي ألفته حاسّة شمّها ، سارِحٌ قلبُها مع كلّ خلجة حرفٍ .

حبيبتي مريم . . لم أكن أفكّر يوماً أنْ أبعد عنك ، ولكنّ القدر ساقني إلى هذا المصير ، ومهما يكن من أمرٍ ، فإنّ حبّنا الّذي تصافئ عليه قلبانا ، قطع المسافات الشّاسعة بين الشّمس والقمر ، وغرس إكليله المزدان بالورود والزّهور بين نجمتين شرعتا بالنّور المتلألىء يبثّ ضياءه في الوجود ، كما أنّ الزّمن طوىٰ سجلّه ، وتوقّفت عقاربه عن الدّوران إيذاناً بخلود هذا الحبّ بيننا ، فلا يفرّق بين قلبينا إلاّ الموت ، أو زلزلة السّاعة يوم النّشور . . لأجلك سأجعل كلّ حروفِ الصّمت تنطق احتفاءً بسعادتك وأنت تقرئين كلماتي هذه ، فاطوي أوراق الحزن في قلبك ، واجمعي الأزاهير السّاقطة من عينيك في طرفيّ مزهريّة جفنيك ، وضعيها قرب النّافذة ، فصدري يوشك أن يفتح قفصه ليطلق حمامه الزّاجل يحمل إليك سنابل أشواقي وحنيني . . !

حبيبتي . لا تعتقدي أنّي مسافرٌ إلى دمشق ، أو أصبحت بعيداً

عنك ، فأنا لست غريباً في وطني لأسافر إليه ، وإنّما سوّاحٌ بدني فيه لأجل العلم ، تماماً . . كما يسوح الدّم داخل الجسم من وريدٍ إلى وريدٍ ، ومن شريانٍ إلى آخر . . ! فالدّم في دورانه لا يبعد عن مصله .

كوني على يقينٍ أنّ حبّنا واحد ، كما أنَّ وطننا واحد في ترابه وأرضه ، وأنّ حبّنا شامخٌ كشمسِ هذا الوطن الّذي نعيش فيه ، فلا فرق عندي أنْ أكون في اللاذقيّة أو في دمشق أو في أيّ مكانٍ من وطني ، فالحبّل السُّرّيُّ لأثير الحبّ الطّريّ الّذي يتواصل بين قلبينا ، كنسغ الأشجار الّتي تسري في جذورها المتشبّثة بتراب هذا الوطن . . ! فأنا مسافر إلى دمشق لأكون إلى جانبك في اللاذقيّة .

طوت مريم الرّسالة وضمّتها إلى صدرها ، بعد أنْ أترعها كلامه بالمحبةِ واليقين ، وتمتمت مع نفسها . . ما أروعك يا سعيد ، وما أعظم عشقك . . . أنت عاشقٌ من الطّراز النّادر ، ومستحيلٌ منك الغدر أو الانقلاب على حبّك . . فبورك قلبك الطّاهر أنقى من ماء الثلج والبرد . .

عندما وصلت الحافلة بسعيدٍ إلىٰ مثواها الأخير من السّير ، واستقرَّت في كراج العباسيّين بدمشق ، أفاق سعيد علىٰ صوتِ معاون سائق الحافلة يربت على كتفيه هامساً له بصوتٍ مسموع :

انهض يا خال . . وصلنا إلى دمشق . . . صحّ النَّوم والحمد لله على السّلامة .

تمطط سعيد قليلاً وهو يمسح عينيه بباطن كفيه باسترخاءٍ واضحٍ وبادٍ للعيان ، نابذاً جسده خارج المقعد ، رادّاً بصوتٍ متهدّلٍ من أثر النَّوم : وسلامتك يا مذوق ؟! . .

بعد أنْ انتهت مراسم الوصول إلى دمشق ، شدّ سعيد حقيبته على كتفه الأيمن ، بينما حمل بيسراه كيساً كبيراً يحوي ملحقات حاجياته . . ثمّ استوقف سيارة أجرة نقلته إلىٰ المدينة الجامعيَّة .

أثناء الطَّريق كانت السّيارة تعبر الشّوارع وسط دمشق بهدوء ، لا يخلو الأمر من توقّفٍ للحظاتٍ عند إشارات المرور في مفارق الطّرق وتقاطعها .

تأمل سعيد بدايةً باطن نفسه ، فأحسّ بشعورٍ جديدٍ يطرقُ قلبه ، حيث تتماوج في نفسه قشعريرةٌ أخاذّة لونّت مشاعره من حيث قوَّة تأثيرها وانخفاضها ، وكانت نسمات الهواء الجافّ العليل تترامىٰ عبر نافذة السَّيارة ببطءٍ تلفح صفحات وجهه ، وتلامس برفق خدّه الأيمن فتنسكب دغدغتها في أحاسيسه مانحة إياه إنشراح الصَّدر ، والتّعافي من مشقّة السّفر ، بينما صدىٰ أذان الظّهر المنبعث من مكبرات الصوت في المآذن الكثيفة ، يجلو قلبه مُذيباً آكام الهموم المطبقة على صدره . ويطفئ تجلجلها في قلبه ، فعادت نفسه أكثر

صفاءً ، وتأقلماً مع الزّمان والمكان . قال في نفسه : هذه هي دمشق تفرض رائحتها وعشقها على القلوب والمهج الّتي تقصدها تماماً كما أخبرني أبي من قبل .

طبعاً تداعيات أفكاره ، تُقلِّب الأحاسيس في كيانه.. طبعاً.. لا يخلو الأمر من هَنَاتٍ تتجلّىٰ خلالها صورة مريم في مخيلته ، فيرىٰ صورتها في كلّ شيءٍ جميلٍ يحطّ عليه بصره... وما أكثر الجمال الرائق المنتشر في تفاصيل الأماكن والمسالك الخالدة فيها .

فور وصوله إلى المدينة الجامعيّة استدلّ على الوحدة السّكنيّة الّتي رُشّح للإقامة فيها ، ثمّ تعرّف على الغرفة الّتي هي محلّ سكنه مع ثلاثةٍ من زملائه الجامعيين ، أحدهم يدرس الفلسفة مثله ، أمّا عبد الباسط فكان طالباً في قسم التّاريخ ، ومحمَّدٌ طالبٌ في قسم اللّغة العربيّة ، استبشر سعيد بهم خيراً كونهم جميعاً يدرسون في كليّة الآداب ، فطريق ذهابهم وإيابهم واحد معنىٰ هذا... أنه سيستأنس مع رفقهٍ طيبيّن سواء ذلك في الدّراسة على مقاعد الجامعة ، أو في موطن السّكن والإقامة .

لم ينسَ سعيد وصيَّة والده ، والذّهاب إلى صديقه أبي معتّزٍ الشّاميّ ، فتوجَّه إليه بعيد عصر ذلك اليوم حاملاً بيده قطرميز العسل ، ركب هذه المرَّة علىٰ متن حافلةٍ كبيرةٍ (سرفيس) ولم يستوقف سيّارة أجرة (تكسي) تقشفّاً وحفاظاً على النّقودِ من التّبذير

الّذي لا طائل منه إلاّ الحاجة والإفتقار ، أنزلته الحافلة قريباً من ساحة المرجة ، فتوجَّب عليه السّير على قدميه مسافةً لا بأس بها. . . ! وصل أخيراً إلى ساحة المرجة ، السّاحة الرَّئيسيّة للمدينة سأل أول رجلٍ صادفه يقف قبالة محلّه : أين تقع دكّان أبي معتّزٍ ؟ . .

بادره الرَّجل قائلاً : هل يوجد أحدٌ من هذه المنطقة لا يعرف دكّان أبي معتزّ مختار المنطقة كلّها. . ؟ أشار الرَّجل بإصبع يده اليمنى إلى حانوتٍ صغيرٍ قائمٍ على زاوية مفرق طريقٍ متفرِّعٍ من ساحة المرجة باتّجاه الشّرق ينتهي إلى ساحةٍ مستطيلة الشّكل تتخلّلها عربات بائعي الخضروات والفاكهة الطّازجة ، وعلىٰ جانبها الأيسر شيِّد حمَّامٌ أثريٌّ قديمٌ منذ مئاتِ السّنين .

لمَّا وقف سعيد أمام مكّان أبي معتّز ، لاح له المذكور عن بُعدٍ ، كان رجلاً طاعناً في السِّن ، بعمر أبيه تماماً ، ذا لحيةٍ مهذَّبةٍ غزاها المشيب ، تعتلي رأسه قبَّعةٌ بيضاءٌ دائريَّة الشّكل ، وجهه أجعدُ أبيضُ برّاق يميل إلى الحُمرة أعلى خدّيه ، ينطوي سمته على طِيْبَةٍ وخُلقٍ حميد ، رفيعُ المقام بين النَّاس. . . ومن خلال حدسه وذكائه استنبط سعيد أنَّ الرّجل من ذوي النِّعمة والثَّراء ، يملأ فراغه في هذا الحانوت ، فذلك خيرٌ له من الدَّعة والكسل والملل .

وما إنْ وطئت أقدام سعيد عتبةَ المحلّ ، حتّىٰ أشرق وجه

أبي معتّز بابتسامةٍ عريضةٍ مرحّباً به ومسلِّماً عليه ظنّاً منه أنّه زبونٌ يريد شراء حاجةٍ (ما) . . !

لكنّ سعيداً بادره قائلاً : كيف حالك يا عمّي أبا معتز ، ألم تعرفني أنا ابن أبي سعيدٍ صديقك القديم . . ! بُهت أبو معتزٍ وراح يرنو إلى سعيدٍ بحيويّةٍ وإمعانٍ ! . . . ودون أن ينتظر سعيدٌ ردّاً من الرَّجل ، استأنف كلامه قائلاً : أبو سعيدٍ اللاّذقيّ ، وأنا ابنه البكر سعيد . . !

تلمّس أبو معتزٍ كتف سعيد بهدوء ، وضحك : ما شاء اللهُ أصبحت شابّاً ناضجاً ، أعرفك صغيراً أوّل حَبْوِك ، كنتَ بصحبة أبيك وأمّك وقتها ، قدما دمشقَ لأمرٍ هامٍّ لا أكاد أذكره الآن . . الله عليك يا سعيد ، والله كبرت وأصبحت شابّاً ! . .

أشار أبو معتّز لسعيد بالجلوس على كرسيٍّ بجانبه ، بينما جلس أبو معتّز على كرسيّه الخاصّ به متّكئاً على ذراعه الأيمن فوق الطّاولة الّتي يجلس ورائها ليمارس عمله في الحانوت ، مولياً وجهه شطر سعيدٍ ، مستفسراً منه سبب قدومه إلى دمشق ، أجابه سعيد : لأجل الدّراسة في جامعة دمشق وسأبدأ الدّوام غداً ! . .

وقبل أن يقرّر الرّجل استئناف أسئلته الأخرىٰ ، أخرج سعيد من جيبه الرّسالة وقدمها بهدوء إلى أبي معتّزٍ قائلاً له : هذه رسالةٌ من أبي إليك ، فتناول أبو معتّز الرّسالة وشرع في قراءتها بعد أن نزعَ

عنها المغلَّف ، نظر قليلاً في السّطور والكلمات ، ثمَّ ابتسم ابتسامةً تنمّ عن رضاه وقبوله الرَّسالة ومضمونها قبولاً حسناً . . ثمّ هزّ رأسه ببطءٍ شديدٍ مُتمنّياً قبول سعيد لما سيطرحه عليه من رجاءٍ في الأيّام الآجلة :

إنَّ والدك يوصيني بك خيراً ، فاعتبر من الآن أنَّ لك أباً ثانياً في دمشق فأقسم عليك بالله العظيم ، إذا احتجت يوماً شيئاً ، فلا تتهاون في طلبه مني ، أبوك كان صديقي الحميم منذ ريعان الشَّباب وما يزال ، قضينا معاً أمتع الأيَّام ، خدمنا في الجيش سويَّة لمدَّة عشر سنواتٍ في منطقة « قطنا » القريبة من دمشق ، كثيرٌ من المرَّات كنا نأتي معاً إلى هذا الدّكان الّذي كان يملكه والدي ، وورثته عنه بعد وفاته .

أُعجب سعيد بترحيب أبي معتّز ، وأعظم فيه نخوته ووفاءه لوالده ، ثم دفع بقطرميز العسل قريباً من أبي معتز ، مقدّماً له إيَّاه بتواضعٍ جمٍّ قائلاً : لقد رأسل والدي إليك قطرميز العسل هذا . . ! فقبل أبو معتّز الهديّة من سعيد مباركاً ذوق أبيه قائلاً : أبوك يعرف جيداً أنّني مولعٌ بعسل شهد اللَّيمون الّذي لا يتوفّر إلا عندكم في المناطق السّاحليَّة لكنَّ سعيداً ـ وعن عمدٍ ـ أدار دفَّة الحديث باتّجاهٍ آخر سائلاً أباً معتَّزٍ عن المدينة السَّاحرة دمشق الّتي أسرت لبّه ، واحتلّت مكاناً فسيحاً في قلبه منذ الوهلة الأولىٰ من قدومه إليها ،

فغمرته أحاسيسٌ فيّاضةٌ بالسَّعادة والألفة فما عادَ يشعر أنّه غريبٌ عنها.. ! ثمَّ قال لأبي معتّزٍ : عمَّي أبا معتزٍ ، لم أجد عناءً بالاستدلال على حانوتك ، أكيدٌ أنَّ الجميع هنا يعرفك ، ويقدّرك حقّ قدرك.. ! أجابه أبو معتّزٍ ، وشفتاه تفترّان عن ابتسامةٍ رقيقةٍ جعلت التَّجاعيد الّتي تسكن وجهه تهتز إطراءً لسؤال سعيد : أجل يا بني.. فأنا من سكان المنطقة القدماء والأصليّين ، منذ مئة عام كان جدِّي قبل والدي يملك هذا الحانوت ويعمل فيه ، وكان يملك كثيراً من المحلات في هذه السوق ، فورثها عنه والدي وأعمامي ، وأغلَب مُلاَّك هذه المحلاَّت المرصوفةٍ إلى جانب بعضها بعضاً يملكها الآن أبناء عمومتي ويعملون فيها ، ولكوني أطعنهم سنّاً يلقبونني بالمختار.. !

صمت أبو معتَّزٍ قليلاً ، ثم تمخّضَ صدره عن تنهيدةٍ قويَّةٍ وهو يرنو إلى صورة قديمةٍ بالأبيض والأسود معلّقةٍ على حائط الحانوت أمامه تبدو من خلالها ساحة المرجة قديماً وما يحيط بها من جنائن ومبانٍ قديمةٍ . كانت محفوفةً بالأشجار والورود المزدانة بأغصانها الخضراء وألوانها الزَّاهية . ثمّ أناخ الرَّجل ببصره نحو الأرض.. فكَّر وقدّر ، ثمّ نظر إلى سعيدٍ نظرة الحصيف الخبير بما يجول في خاطر شابٍّ في مقتبل عمره يتطلّع عقله إلى الاستفادة من ذوي الخبرة في الحياة :

آه يا ولدي.. حتماً سوف تكون سعيداً في دمشق ، مع الأيّام ستتعرّف على أماكنها وشوارعها وأسواقها أكثر... وسوف تعشقها أكثر من أيّ عشقٍ آخر.. ! وستشرب من مائها العذب الصّافي ، ومَنْ يشرب من مائها فلنْ ينسىٰ طعم الوفاء والإخلاص والمحبّةِ طوال حياته .

وعلى حين فجأةٍ.. دسَّ أبو معتّزٍ كلتا يديه حتّى ذراعيه اختفيتا في جوف الطّاولة ، وأخرج صندوق حلوىٰ مصنوعاً من الورق المقوّىٰ السَّميك ، فنزع عنه غطاءه ، ووضعه أمام سعيدٍ على الطّاولة مناولاً إيّاه منديلاً ورقيّاً ناعماً قائلاً له : كُلْ يا بني ، وحلِّ ضرسك ، وليكن أوّل عهدي بمعرفتك الحلوىٰ المبلّلة بماء السّكر المذاب .

سُرّ سعيد بحسن استقبال أبي معتّزٍ له ، ومن تفاعله بزيارته من غير سابق معرفةٍ بها ، واعتبر كلامه معه بمثابة شهادة عظيمةٍ على استدامة السَّعادة والنَّجاح ومحالفة القدر له...

بعد أنْ تناول سعيد بعض قطع الحلوىٰ اللّذيذة المحشوَّة بالفستقِ والجوز حملق بعينيه في الأفق عبر السِّتار الزُّجاجيِّ في واجهة المحلِّ ، فوجد السماءَ اكتست بالحمرة ، والشَّمس أوشكت على المغيب ، فوقف على رجليه مستأذناً الرّجل ، معتذراً منه عن البقاء عنده حتّى موعد العشاء كما طلب منه ، متذّرعاً بالإرهاق والتَّعب ، وأوصاه أبو معتّز بالتّردّد عليه وبعدم الغياب عنه طويلاً ، ولم تغفل

عن خاطر الرَّجل نقطةٌ هامَّةٌ ، وهي أن يمرَّ عليه إذا أزمع السَّفر إلى اللاذقيّة حتّى يحمّله شيئاً إلى أبيه .

ألفىٰ سعيد نفسه يقوىٰ على السَّير ماشياً على قدميه فيمّم خطاه سائراً نحو المدينة الجامعيَّة ، متأمّلاً شفق الغروب وهو يتمدّد مرخياً وراءه عتمة المساء . . وكم هو جميلٌ ورائعٌ حلول المساء في أجواء دمشق ، وهو يجلب معه نسيمات الهواء العليل البارد الفائح برائحة الأشجار وعطر الورد والياسمين . أحسَّ سعيد بالتّخفّف والمرح ، وطوت قدماه مسافةً غير قليلةٍ بعد نقطة انطلاقه من ساحة المرجة ، فجأة وقف قليلاً يتأمل مِئذنتي جامع التَّكيَّة السُّليمانيّة الشّامختين ، كان كثيراً ما يلحظ صورتهما الحيَّة على شاشة التِّلفاز منذ كان صغيراً ، رآهما كأنَّهما عُنُقَي يمامتين مشرئبّتان نحو السَّماء تناجيان القدوس الأعلىٰ . . ثمَّ تناهىٰ بصره يساراً ليرىٰ مُتحف دمشق الوطنيَّ الّذي تنتصب في أركان حديقته الخارجيَّة الأوابد الأثريَّة المنحوتة أشكالاً وصوراً متعدِّدةً ، يعود تاريخها إلى آلاف السّنين الغابرة ، أدركها سعيد كشاهدٍ حيٍّ على حيويَّة الحضارات الّتي تعاقبتْ على هذه الأرض الطيِّبة ، واستأنس بحفيف أغصان الأشجار الباسقة حول أسوارها ، بينما كان منظر أوراق الأشجار المصفرَّة التي تتناثر على سطوحٍ أرضيّة مرمريّةٍ ، يرسم لوحة يعجز البشر عن مثلها .

تسرّبت إلى فيحاء نفسه مشاعرُ لذيذةٌ هيَّابةٌ ، سادراً عن كل شيء

يكدّر عليه أحاسيسه المفعمة بالأمل ، يجولُ خاطرُه في عالم الفكر وهو يقلّب الصّفحات المرئيّة أمامه ، مُتغلغلاً إلى أبعد زوايا خياله ، بعد أنْ استولت عليه السَّعادة مجدّداً في هذا المساء الدِّمشقيّ الّذي يرسل أضواءه جاليةً العتمة عن كلّ شيءٍ يقع عليه بصره ، فنبر عقله بأبياتٍ من الشَّعر دندنت بها شفتاه :

من دمشق يهّب النّسيم العليل

بعطر النعناع والياسمين والرَّيحان

نسيم دمشق يجعل المرء سكرانَ

يهبُّ من حينٍ فالعشب بالحبِّ ريَّان

أترنّم باسمك يا دمشق صامتاً ولهانَ

وأخشىٰ ذكره مسموعاً فما يسمع له سرحان

وفور وصوله إلى غرفته في المدينة الجامعيّة ، وجد رفاقه منطرحين على أسرّتهم يغطّون في نومٍ عميقٍ ، فأخذه الكرىٰ وتمدَّد فوق سريره ، فأغمض جفنيه هو الآخر ، ونام كما ينام الطّفل في حضن أمّه بعد أن أسكره ألقُ دمشق الغَنَّاء . . !

* * *

أنهىٰ... ونَهْر

ما أروع أن يمضي المرء الحياه منهمكاً بالتحصيل الدّراسيّ بعيداً عن الأهل والأحباب ، خاصَّةً إذا كان مع لفيفٍ من الرِّفاق الطّيبيّن ، أبداً لا أرقّ ولا أروع من الجوّ الدِّراسيِّ في دمشق . . ! فهيبةُ العلم وجلالة قدره يتمازجان فيها مع حيوية الحياة الَّتي لا تضاهىٰ ، حيث الأمن والأمان ، والسّكينة والوئام باستقرار البلاد والعباد .

فالتَّوجه في الصَّباح الباكر إلى مقاعد الدَّراسة في الجامعة بأجواءٍ يملؤها الجدُّ والنَّشاط ، ثمَّ العودة بتراخي الجسد المنهك تعباً من جرّاء تشبّع العقل من ولائم المعرفة المتعدّدة الأطباق والأذواق ، كل ذلك ينطوي على لذّة لا ينطوي مداها في نفس المرء طوال حياته .

بعد مضيّ شهرٍ كاملٍ ، شعر سعيد بلوعة الشَّوق إلى أهله وحبيبته فأزمع السّفر إلى اللاّذقيّة . . فضلاً عن شعورٍ قمينٍ نازعه فمنحه قوَّةً لازمةً لانتزاع بعض الأيّام من تضاريس عامه الدِّارسيّ .

فقد تلمّس في كلام مريم منذ يومين وهو يحدِّثها هاتفياً أمراً مريباً . . ! فليس من عادتها أن تتحدَّث معه بإرتباكٍ واختناقٍ كطفلةٍ فاقدةٍ الحول والقوَّة . . ! تَضَرَّجُ ألماً وعذاباً ، كما أقلقه جوابها لمَّا

سألها عن سبب ذهول قلبها عن كلامه المُطرّىٰ بالغرام والوجد والهيام ، حيث قالت له : عندما تعود من دمشق أطلعك على الأمر ؟ فطفق يتأمل بعمقٍ في فحوىٰ كلامها الّذي أثار شكوكاً في نفسه .

استعادت ذاكرته أبا معتّز ، ووصيته له قبل سفره إلى اللاذقيّة ، فاستجمع أمره ، وأزمع السَّير إلى دكانهِ مشياً على قدميه ، يرافقه صديقه « درويش » الّذي سيسافر معه إلى اللاذقيّة .

لمَّا أقبل سعيد بوجهه على أبي معتّزٍ ، طارَ لبُّ أبي معتزَّ فرحاً وتهلّلاً بقدومه . . ها هو ذا يقول له : لقد أطلت غيابك يا سعيد ، ما كان يمنعك أن تزورني في الأسبوع مرَّة لأطمئن عليك ، لو فسحت لي مجالاً لأحقّق قدراً من وصيَّة أبيك لي . . ! ثمّ استدار أبو معتّزٍ محملقاً بابتسامةٍ عريضةٍ انْضوىٰ بسببها انتفاخ تجاعيد خدَّيه عند طرفي شاربه . . ! فبادره سعيدٌ لتوّه قائلاً : هذا صديقي وزميلي في الدَّراسة « درويش » وهو مزمع على السَّفر معي إلى اللاذقيَّة .

ردَّ أبو معتزٌ وقد فترت حرارة تساؤله كما لاح من قسمات وجهه ـ قائلاً : لا يحلو السَّفر إلاّ برفقة الصَّديق ، أفهم من كلامك أنّك تريد السَّفر إلى اللاذقيّة ، أحسنت صنعاً بمجيئك إليَّ يا ولدي . . ! ؟

بعد أن دارت دردشةٌ مؤنسةٌ لنفس الصَّديقين مع أبي معتّز ، وهما يرشفان كوباً من الزَّهورات الشَّاميَّة ضيافةً من أبي معتَّزٍ ، خرجا من

عنده مغتبطان ، وسعيد يحمل في يده كيساً يحوي مزيجاً من المكسرات هديةً من أبي معتَّز لأبيه .

استكمل الصَّديقان خطواتهما يستعجلان الوصول إلى منطقة البرامكة حيث تقف الحافلة الّتي ستقلّهما إلى اللاذقيَّة في موعدها المحدد الثّانية عشرة صباحاً .

في الطَّريق أثناء سير الحافلة ، انتابت سعيد سِنَةٌ من النَّوم ، نازعه خلالها حلمٌ عجيبٌ أفاق منه مذعوراً مرتبكاً ينظر يمنةً ويسرةً ، ويحملق خافضاً رأسه ناحية قدميه إلى أرض الحافلة وهو يقول : أين الأفعى ؟ . . ممّا أثار قلق رفيقه درويش الّذي يجلس إلى جانبه ، عمد درويش إلى وضع يده علىٰ كتف صديقه يهزه هزاً خفيفاً ليصحوَ من مغبّة هذا الحلم المزعج ، فثبت سعيد على المقعد ورنا مثبتاً عينيه في سقف الحافلة . . تنهّد طويلاً حتّى استقرّ جنانه وهدأ روعه . . ! ثمّ التفت إلى صديقه يستفهم منه ما بَدَرَ عنه آنفاً . . !

ضحك درويش بقهقهةٍ مسموعةٍ ومتقطّعةٍ وقال له : أفقت من الكابوس ؟ ردَّ عليه سعيد : فعلاً . . إنَّه كابوسٌ لا يستكين له لبٌّ الحليم ، لقد رأيت أنّي أقف على ضفّة نهرٍ ليس عريض المجرىٰ وإنّما بين ضفَّتيه مسافة أمتارٍ قليلةٍ ، وعلى الضَّفة الأخرى تقف مريم تستصرخني مرعوبةً من وجود أفعىٰ مشرئبّة العنق تكاد تلسعها ، وكلَّما حاولت اجتياز النَّهر لأصل إليها ، أشعر بقوَّةٍ شديدةٍ تجذبني

إلـى الخلـف . . ! فـأقـف مكتـوف الأيـدي لا أستطيـع الحـراك ومريم . . . تصرخ . . وتصرخ ، فتناولت حجراً لأنال بها من الأفعىٰ ، وتراني وما كدت أرفع الحجر بيدي ، إلاَّ والأفعىٰ اجتازت النَّهر بسرعة البرق إلىٰ حيث أقف ، فسقط الحجر من يدي . . ! فنظرت بلهفة لا توصف إلىٰ مريم ، فوجدتها غابت وذابت في ثنايا الحلم كأنّها لم تكن . . !

ثمّ أخذتني رجفةٌ وهلعٌ شديدين . . . وغاب الحلم راسماً أفقاً متلبداً بالغيوم السوداء يلفّ كياني كلَّه . . ! وأحسبها رؤيا تنذر بناقوس الخطر ، وأظنَّ أنّه بات وشيكاً يدقّ مُغيّباً السّعادة عن ملامح وجودي .

لم يكترث درويش بما أفصح به سعيد لظنّه أنّه مجرد أضغاث أحلام .

لمّا وصلت الحافلة . . وسكتت عجلاتها في مركز الوقوف في اللاذقيّة ، ودّع سعيد صديقه علىٰ عجلةٍ من أمره ، واستجرّ خطاه بشيءٍ من السّرعة قاصداً بيته .

وفور وصوله ضمته أمَّه إلى صدرها ، وقلبها يغرّد فرحاً بعودته ، وهتفت من الأعماق العميقة لفؤادها : حمداً لله على سلامتك يا ولدي ، أنتظر عودتك بفارغ الصَّبر ، رددت إليَّ روحي الَّتي فقدتها منذ غيابك عنّا . . !

فانكبّ على يديها يقبلهما متودّداً رضاها ، ومُسترضياً حنانها ولهفها عليه ، وبينما هو وسط هذه الحفاوة من أمّه وأخيه طارق ، وأخته سعاد ، دلف إلىٰ أذنيه فجأةً صوت أبيه الخشن ببحَّةٍ غاب فيها رنين صوته المعهود ، يقول له : أمَّا أنا فلم أشتق إليك كأمّك ، ولكن ذابت سويداء عقلي بك مفكّراً ، وعن حالك متأمّلاً بين الفينة والأخرىٰ طوال غيابك عنّا تعال يا ولدي لأشمّ رائحة وجودك وعودتك . . ! وضمَّه إلى صدره مربّتاً علىٰ ساعديه مغتبطاً بعودته سالماً .

ولمَّا انتهت الدَّردشات بينه وبين أبويه عن سير حياته في دمشق تذكّر سعيد هديّة أبي معتزٍ ، فقام من فوره إلى حقيبته ، وأحضرها إلى إلى والده قائلاً له : هذا ما حمّلني إيّاه أبو معتّزٍ إليك .

وبهذا القدر من الحديث والأسئلة ، اكتفىٰ سعيد من الإجابة على استفسارات أبويه ، مُشبعاً إيّاهما بالانطباع السّارِّ عن تقلبات حياته الدِّراسيَّة في دمشق ، وأراد أن يسأل أمه عن مريم ولم يجد له حيلة لذلك سوى الاحتجاج بأنَّهُ مرهقٌ وجائعٌ ، فهبّت الأمّ مغمورةً بالرِّضا إلى المطبخ لتحضير الطَّعام له ، فلحقها سعيدٌ ، ووقف وراءها واقترب برأسه ناحية خدها الأيسر ، وسألها عن مريم وأنبأها عن شعوره الكئيب ممَّا يجول في رأسه من شكوكٍ مريبةٍ ، وعن إحساس قلبه بمكروهٍ ربّما تعاني منه مريم ، وألحف على أمّه أنْ تخبره إنْ كان هناك ما يسوؤها . . !

لكنَّ الأمّ أظهرت في وجهها ابتسامةً كدرةً تعلوها الصّفرة والإرتباك وقالت له بصوتٍ مسموع مشوبٍ بالحذر : الصّباح رباح يا ولدي ، غداً تحدّثها وتطمئن على عافيتها وأحوالها ، أمَّا اللَّيلة فلا تستطيع الحديث معها في الهاتف لأن أباها يكون قد عاد من عمله .

تناول سعيد طعامه خفيفاً يمضغه على مهلٍ ، تاركاً بين اللُّقمة وأختها متّسعاً من الوقت ، بينما كانت عيناه تراقبان انطباعات أمّه وتلوُّن وجهها بين اصفرارٍ تارةً ، وبين احمرارٍ تارةً أخرىٰ ، حصد من خلالها ما مكّنه من معرفة أن هناك سراً عميقاً لا تطاوعها نفسها إخباره به ، وهو يعذر أمّه في ذلك ، كونها مرهفة الأحاسيس نحوه دوماً . . !

خلد سعيدٌ في المساء المتأخّر إلى فراشه مستعجلاً الكرىٰ ، وأطبق أجفانه منتظراً بلوغ الصبَّاح . . .

وفي الصَّباح . . حين بدأت الشّمس تدلَّىٰ إلى الضَّحىٰ استيقظ من نومه ، فوجد أباه جالساً في الصَّالون وكأنَّه ينتظر استيقاظ ابنه مبكراً ، أمَّا أمُّه فكانت تعدّ القهوة ، كان الصَّباح مكلّلاً بالجلال عندما جلس سعيد بين أمّه وأبيه ـ يبثّهما اشتياقه إلى الهواء العليل في مدرج طفولته ، وهو يرتشف فنجان القهوة ، محاولاً إدخال الطمأنينة إلى قلبي والديه وإخبارهما أنه يقضي أمتع الأوقات وأسعدها في دمشق ، محدّثاً إياهما عن غدوّه ورواحه إلى الجامعة ومنها ،

لكنّ أباه كان يستمع إليه مُطرقاً ببصره نحو الأرض ، وكأنه لا يهمّه كلام ابنه ، ولا يلقي له بالاً وهو في الحقيقة يُنَضّد في عقله بعض الأفكار والكلمات تخفيفاً من وقع ما قد يحدث هذا اليوم من طفح الكآبة والغضب في نفس ابنه سعيد .

أمّا أمّه فجلست تحدوها ابتسامةٌ خاليةٌ من اخضرار العيون ، وفارغةٌ من تهلُّل الوجه والخدود ، فهي بالكاد تبتسم . . ! قال سعيدٌ لمَّا لاحظ ذلك مخاطباً نفسه : أين غابت كلمات أبي المرحة المسقسقة الّتي ترطّب جوّ الصّباح . . ؟

أبوه كان علىٰ درايةٍ تامّةٍ أنّ سعيداً مأخوذٌ ببعض الأفكار الّتي تثير شكوكه وقلقه ، فقال قاطعاً سيلان الهدوء لزوجته وابنه : ما حالكما صامتان هكذا . . ؟ كالّذي يجلس في اجتماعٍ تأبيني ، ثمّ وجّه كلامه مخصوصاً إلى سعيد قائلاً له : هيه . . ! اضحك . . ودَعْ صباحك هادئاً هانئاً ، بعد ساعاتٍ قليلةٍ تبيض الدّجاجة وتحكي مع مريم . . ! ولخلق مزيدٍ من الانسجام والتّفاعل بينه وبين ابنه ، هتف بصوتٍ خفيضٍ : أين أنت يا مريم . . . أين أنت الآن أيّتها السّاحرة الحسناء بإمكاني أنْ أحدّثك الآن عن قلب ابني سعيدٍ الخافق المفعم بالحياة . . . فابتسم سعيد ودُغدغت مشاعره بشيءٍ من السّعادة عندما تلّفظ أبوه باسم مريم ، وقهقهت أمّه ، وانفرج وجهها بتهلّلٍ يكاد يكون مُطمئناً لسعيدٍ عن عدم وجود مكروهٍ مكنونٍ في صدرها لا تخبره به .

ثمّ تابع الأب حديثه قائلاً : مساكينٌ أبناء هذا الجيل ، لا يدري الواحد منهم ماذا يفعل إذا وقع في فخِّ الغرام ، وطاش عقله ولعاً بمحبوبته ، ونسَيَ الدَّنيا كلّها حتّى ينسىٰ أمّه وأباه . . ؟! فلا يعود يولي مشاعر الآخرين أدنى اهتمام . . ! إنَّهم أصحاب عقولٍ قاصرةٍ . . . !

أطبق سعيد فمه على رشفةٍ احتساها من فنجان القهوة ثمّ ابتلعها في جوفه ، وقال : أبي . . ألمس في نهاية كلامك نقاط ضعفٍ ، كأنّني المقصود بكلامك ، فهل توضح لي ما قلته أخيراً ، حتَّى أتأكدّ إن كنت قد فهمتك خطأً أو صواباً ؟ فردّ عليه والده شارحاً : يا بنيّ لقد فهمت شطر كلامي الأخير خطأً ، فليس فيه نقاط ضعفٍ . . أنت تعتبر صغيراً حتّى الآن ولم تسبر غور الحياة وقعرها ، لهذا فهمت كلامي خطأً . . . أوكّد لك أنّك لم تفهم كلماتي الأخيرة . . . ما زلت صغيراً على الدُّنيا . . أنت تدرس وتتعلّم لكن كلّ ما تدرسه لا يتجاوز حدود المهارات كالكتابة والقراءة والحفظ . . . إنّ ما أريد قوله لك . . أنَّ النَّاس في عقولهم وتصرّفهم كبصمات الأصابع الّتي لا تطابق بعضها البعض ، لو كانت عقولهم متطابقة وفهمهم للأشياء فهماً واحداً لأصبحوا أكثر فهماً ، ولكن من المحال أن يتحقّق ذلك . . إنّي واثق كلَّ الثّقة أنّ كلّ كلمةٍ قلتها يلزمك العديد من الأيّام لفهمها . . غداً عندما تكبر ستسير على دروب التّجارب ، وحتماً ستغرف بدلوك وتأخذ الفائدة منها ، عندها يتبيَّن لك طريق الصَّواب

من طريق الخطأ في الممارسة الفعليّة لا بالدّراسة الّتي تدرسها . . يا ولدي لا تفسّر فشلك في فهم كلامي على أنّك غبيٌّ . . بل السّبب يرجع إلى خلو جعبتك من التّجارب الحياتيّة أولاً وأخيراً . . .

شكر سعيدٌ أباه على هذا الشرّح والإيضاح الّذي يمسُّ فقه الحياة ، وبعد أن انتهى من مراسم حاجاته الصباحيّة وتناول فطوره . . نظر في السّاعة فوجدها تشير إلى العاشرة صباحاً ، فانتفض كالبرق الخاطف ، رفع سمّاعة الهاتف ، وسرعان ما ردّت عليه مريم مشغوفةً تنتظر حديثه على أحرَّ من الجمر .

دار حديث الودّ والحنين بينهما ، لاحظ في كلامها حزناً عميقاً يصدّها عن انفتاح فجوة الأمل والسعادة في نفسها . . كما لاحظ أنَّ هناك جداراً منيعاً يحول بينها وبين الشعور بروعة هذا الصَّباح الجميل . . . إنّها مدرسة الحياة الّتي علّمته التقاط المشاعر والأحاسيس بين ثنايا الكلام ، وطيّات المعاني . . !

فسألها مستفسراً عمّا يعكّر صفاء نفسها ؟ . . فقالت له : ألم تخبرك أمّك ؟ حدَّثتُها منذ بضعة أيّام عن الثّعبان الطّارق الّذي سيسرق حبّنا ؟! غداً وقت لقائنا سأخبرك بكل شيءٍ تفصيلاً ، عساك تفعل شيئاً . . !

ما إن سمع سعيدٌ تلك الكلمات حتى طاش لبّه ، وأصابه الجمود ، وشعر بدوارٍ شديدٍ يغزو رأسه ، فلم ينبسْ ببنت شفة ،

وأغلق سمّاعة الهاتف جالساً على أريكته ضارباً باطن كفّه الأيمن على جبينه وهو يتمتم بصوتٍ خفيضٍ : يا إلهي . . الرّؤيا الّتي رأيتها لم تكن عبثاً ؟! . . سرعان ما أفاق من غشوته ، وآب انتباهه مدركاً ما حوله ، على وقع صوت أمّه تقف أمامه وبيدها كوبٌ من الماء الطّازج المبّرد ، قدّمته إليه قائلةً : اشرب يا ولدي ، واجعل روعك يهدأ قليلاً ، الدّنيا أخذٌ وعطاءٌ ، وقسمةٌ ونصيبٌ ؟! . .

انفجر سعيد غضباً في وجه أمّه ، على غير المعهود منه ، وصرخ بصوتٍ حادٍّ للغاية : لماذا لم تخبريني يا أميّ . . . البارحة أحسست أنّك تحجبين عنّي سرّاً ما .

رنت أمّه إليه بحنانٍ وشفقةٍ ، ومسحت على رأسه بأصابعها الهادئة المرهفة قائلةً له : كيف أخبرك ؟ وهل قلبي يطيق حزنك . . أنا أمّك ، حناني وشفقتي يصدّاني عن إبلاغك أمراً يؤدي إلى غضبك وانهيارك . . !

جلس سعيدٌ قرب أمّه تحدّثه أنّ شاباً من الرّقة طلب يد مريم خاطباً لها ، وهو صديق أخيها شفيق . . . أعلمتني مريم بالأمر ، وهي مصممة على رفضه ، وهي تنتظر عودتك بلهفة لتساعدها على تجاوز هذه المحنة . أحسّ سعيد كأنّ نفسه تحتضر ، أو كأنّه واقعٌ تحت تأثير ضربات الزلازل . . . !

* * *

كآبة وحزنٌ

مرَّ المساء التَّالي على سعيدٍ بعد عودته من دمشق ، وأفراخ سعادته بعد هذه العودة غادرت أعشاشها في قلبه ، وعاد الحزن ينصب فِخاخه مانعاً عنه أيّ شعورٍ بالأمل .

وفي صباح اليَّوم التَّالي قبيل الظهيرةِ بقليل ، التقىٰ مع مريم في الحديقة المعهودة والمعتادة منذ سنوات منصرمة ، كان اللِّقاء هذه المرَّة حارَّاً للغاية ، ولكن قد تغيَّر فيه شيءٌ ما غير محسوس . . ! مريم ليس باستطاعتها إخفاء عاطفتها الجيَّاشة عن سعيدٍ بعد أن طال غيابه عنها ، فأحنت رأسها على كتفه باكيةً ، فيما دموعها تنهمر بشدَّة على وجنتيها اللَّتين غاب بريقهما المفعم بالبياض ، فحلَّقت أصابع سعيد مغمورةً في ثنايا شعرها ، مُتمتماً في أذنها كلماتٍ تفيض حرارةً ووجداً : أنت لؤلؤة حياتي الغالية يا مريم ولا أبخل عليك بروحي إذا تطلّب الأمر . . !

رفعت مريم عينيها الجميلتين السوداوينَ اللَّتين تختزنان حزناً في أعماقهما . . ! مفكّرةً أنّ لقاءهما يُذكّر بمدفنٍ أكثر ممّا يذكّر بشيءٍ آخر حيث أدهشها كلامه المباغت : رُوحَك . . لا يا حبيبي . . أفعل

كلّ شيءٍ في سبيل صدّ الأذىٰ عنك . . آمل يا سعيد ألاّ يفترق قلبانا عن بعضهما دقيقةً واحدةً ، وإنْ باعدت المسافات بيننا يوماً .

صمتت لتجد في نفسها مخرجاً يزيح عن فؤادها صخرة الألم والعذاب الجاثمة ، وهي تحسُّ خطر فيضان قلب سعيد بالحزن ، ثمّ تابعت كلامها والأسىٰ يعتصرها اعتصاراً : خلاص . . . انتهىٰ الأمر فنحن نهدر الحبَّ عبثاً . . والدي أعطاه وعداً بالقبول والموافقة ، كذلك أخي شفيق ، يهدّدني والدي ويقرّعني بكلامه الجافِّ الغليظ ، ويقول لي : متَى كنتِ تخالفين لي رأياً ، أنذرك بغضبي إن لم توافقين على خطوبتك من حامد . . . يا ابنتي هو شابٌّ لا ينقصه شيءٌ ، يوفّر لك السّعادة الهانئة ، ومن الصعوبة الحصول على رغادة العيش في هذه الأيّام .

والدي قاسٍ جداً يا سعيد ، ومن الصَّعب شقُّ عصا طاعته فيما يرغب ويريد ، فهو غالباً ما يحسب نفسه أكثر فهماً من الجميع . . ! تناهىٰ إلى سمعي وهو يتوّعد أمّي بذبحي وهو يقول لها : لماذا ابنتك مصرَّة على رفض هذا الخاطب ؟ أَهيَ عاشقةٌ ؟ . . أقسم بالله لو كان هذا الأمر حاصلاً لأذبحنَّها بيدي هاتين . . ! أقنعيها بالقَبول ، وألا تفوّتَ هذه الفرصة على نفسها ، فلن يتقدَّم لها خاطبٌ في المستقبل أفضلَ من حامدٍ صفاتاً ، ولا أعزّ منه مالاً وجاهاً ونعيماً .

تراخىٰ سعيد فوق المقعد ، وأطرق مفكّراً يحاذر الدُّخول في شعاب هذا الحديث عن الخطوبة والزَّواج . فهو شابٌّ في بداية تحصيله الجامعيّ ، فقير الحال ، والده يعيش مع عائلته على راتبه التَّقاعدي ، ولا يملك سوىٰ قطعة أرضٍ في ظاهر المدينة ، يوفّر غلتّها بما يعينه على تربية أبنائه ونفقاتهم الدِّراسيَّة . . . ؟! الطَّريق مسدودٌ أمامك يا سعيد لتحصد ثمرات حبَّك لمريم ، وليس باليد حيلةٌ لتجاوز هذه المحنة ، فلو تقدَّمت لخطوبتها لا شك أن أباها وأخاها سيرفضان بقوَّةٍ ، وربَّما بعدها وقع مكروهٌ لا تحمد عقباه . . !

أمَّا مريم فتحوَّلت في الحال إلى فتاةٍ حزينةٍ مرتبكةٍ مهيضة الجناح تغيَّرت تعابير وجهها ، لم تنبِس شفتاها بكلمةٍ واحدةٍ ، وباتَ يعتريها الأنين والشّكوىٰ والبكاء . . لم تجد عزاءً لنفسها ولحبيبها سوىٰ هذه الكلمات :

مهما كان من أمرٍ فإن حبَّك لن يفتر في قلبي ، وسأبقىٰ أحبُّك إلى الأبد ، ولو اعتصرتَ دمي لخطَّ على صفحات جسدي اسمك « سعيد » ؟

تعطلّت فجأة شبكة أحاسيس سعيد ، وشعر كأنّ الجوّ تضوّع برائحة الحزن ، وذوت من قلبه براعم السَّعادة ، وتساقطت بين شعاب كبده وهَمَتِ الدُّموع من عينيه بكثافةٍ .

عزمت مريم على العودة إلى المنزل ، فأمسك سعيد بيدها وطلب منها الجلوس على المقعد إلى جانبه ، فمدّت يدها إلى حقيبتها وأخرجت منديلاً مسحت به دموعه المتساقطة على وجنتيه ، ثمّ امتطت جواد قدميها مسرعة الخطا نحو المنزل ، نهض سعيد متململاً متطوحاً كالسَّكران ، لا يدري في أي وجهة يمضي . . ؟ ساقته قدماه إلى شاطىء البحر ، حيث الصّخور المتعرجة الناتئة المتداخلة نحو مياه الشاطىء كالخلجان الصغيرة متكورة حول رؤوسها وهدات تتجمع فيها الكثبان الرّمليّة الكثيفة ، فجلس سعيد فوق صخرةٍ منها ، ولم يَحِد بنظره عن البحر المترامي الأطراف ، فاستعادت ذاكرته صورة مريم وهي تبكي ، ووجهها المتوسِّل يطوف فوق سهب مياه البحر . . لم يكن باستطاعته التّحكم بأفكاره السَّاردة فقد أنهض حزنَه من جديد لهيبُ الذّكريات ، وآلام النّفس ، فيما كان صدره قد ضاق فيه النَّفَس وعَسُر . . ! أحسَّ أنَّ الهواء الّذي يستنشقه قد بات مسموماً ، تغيّر كل شيءٍ في طوايا عقله وخفايا نفسه ، كان قلبه يرزخ تحت نيران الحنين متوّحداً مع حزنه وكآبته . . صوت صخب الأمواج المتدحرجة على الشاطىء لم يعد يجلو صفاء نفسه . . . ! ولا البحر بمنظره البّهي السّاكن عاد يزرع فيه هدوء البال أو السكينة . . !

تصرّمت ساعاتٌ طويلةٌ وسعيد آوٍ إلى صخور الشّاطىء ، جالساً في انطواءٍ وانزواءٍ ، يتأمَّل في عبءِ جُرحه الّذي سيحملُه في قلبه

طويلاً ، ربّما استغرق عمره كلّه . . يفكّر في أمورٍ لا يَحْسُن التفكير فيها ، تتعلق بالموت والحياة . . والفشل والنَّجاح ، وأيّ مكروهٍ ينزل به ، أو يعاقب به نفسه . حتماً ستتجرع كامل أسرته مرارته ، وسينعكس سلباً على حياة أبيه وأُمّه على وجه الخصوص .

الأفكار المتشابكة مع سوء الأقدار ، تكاد تُنْشِب أظفارها في مخيلته . . !

يدفعه التَّهور إلى تحقيقها واقعاً لولا أن باغته هاجسٌ هاتفه من أعماق نفسه متسرّبٌ من عقله الباطن : ليس هنالك في العالم ما هو خارجك ، فكل ما تفكّر به إنّما هو داخلك ؟ . . والأفضل أنْ تكون إنساناً رغم كلّ شيءٍ . . !

عندما بدت العَتَمة واضحةً في السماء بُعيد المغيب ، وقف سعيد ناهضاً ، واهن القوىٰ ، يتنفّس بعمقٍ ، وعاد إلى البيت في وقتٍ متأخّرٍ من هبوط المساء . . بدا ممتعضاً أمام أبيه وأمّه من جراء حزنهِ وكآبته . . كان والده يهزّ رأسه بشدَّة مُتعجّلاً عليه السُّؤال : غبت عن المنزل طويلاً يا سعيد ، شغلت بالنا بعدم حضورك على الغداء . . ؟!

أمّا أمُّه الحنون ، فكان من الصَّعب عليها أن تتصوَّر ابنها غائر العينين ، مُحمرّها بسبب البكاء الطَّويل ، تحيط بها هالات زرقاء ، أو أن يقبل بوجهه الشّاحب الكئيب ، فهتفت عليه من حنايا قلبها . .

تسيلُ نافرةً من عينيها بعض القطرات : يا ولدي لا ترهق نفسك بالتّفكير ، ولا تُدخل الهمّ والحزن إلى قلبي ، عيناي لا تطيقان النّظر إليك على هذه الحال . .

صمت سعيد ، ثم طلب من والديه ألاّ يقلقا ، وكلّ ما في الأمر أنّ أعصابه متوترةٌ الآن ، وسيجعل الله له من أمره فرجاً ومخرجاً .

تولّى عن أبويه ، وآوى إلى غرفته زاوياً حُزنَه تحت غطاء اللّيل ، مفكّراً بالعودة إلى دمشق ، تاركاً أمر سعادته ، وأمر مريم . تُنكّل بهما الأقدار من غير اعتراضٍ على مشيئة الحكيم الأعلى ، فله في خلقه شُؤون وأحوالٌ تبدو للوهلة الأولى عصيَّةً على الفهم ، ثمَّ بعد ذلك تنقشع الغيوم الّتي تكتنفها مفصحةً عن الحقيقة الّتي تضيء على العقول كنور الشّمس في رابعة النّهار . . !

تماهى حزن سعيد مع المشاغل الدِّراسيَّة ، ففي اليومين الأُوليين من عودته إلى دمشق ، كادت نفسه أن تذهب حسرات ممّا تعانيه مريم من شكوى وألم ، وأحسَّ أنَّ سعادته قد تآكلت مع هذه الرَّزيَّة الّتي ألمّت بهما معاً ، وشعر أنَّه بحاجة إلى جرعاتٍ من الأمل تعيد له توازنه النَّفسي واستقراره العاطفيّ .

* * *

« بين نعجتين »

ثمَّ مضى سعيد يشغل نفسه بأيِّ شيءٍ سواء في دراسته أو في متابعة النَّدوات الثقافيَّة والأمسيات الشعّرية فذلك خيرٌ من الاستسلام للحزن واليأس. . فهو لو خسر مريم ، لكنَّه لن يخسر حبَّه الدّفين في قلبه ، ولسوف يبقىٰ يعزف على وتيرة خياله أجمل الألحان العذبة التي تؤنسه في وحدته ، وأكيدٌ. . أنَّ التّعامل مع الحبّ بعقلانيّةٍ وحكمةٍ يوفّران على المرء كثيراً من المتاعب والأهوال الَّتي هو في غنىً عنها .

بعد عدّة أسابيع ، هاتَفَ مريم ليطمئن على صحتها ، وليثبّت جَنانَها ، فلا يأخذ الحبّ منها كل مأخذٍ نحو جنون العاطفة وتهورّها ، وعليها أن تتجاوز هذه المحنة بسلام ، حدّثها للحظاتٍ قليلةٍ ، أحاط من خلالها علماً أنّها ثابتةٌ على حبِّه حتّىٰ لو تزوجت غيره ، كانت لهفتها علىٰ سعيدٍ توحي بإخلاصها ووفائها لحبيبها ، لكنّها أصيبت بحالة انفصامٍ وجوديٍّ بين الرُّوح والجسد ، فخسارتها لسعيد بمثابة فقدانها لروحها الغالية والعزيزة .

بقيت مريم علىٰ تواصلٍ مع سعيدٍ عبر الهاتف أيّاماً وشهوراً حتّىٰ

زُفَّت إلىٰ بيت الزَّوجيَّة ، وأصبحت في كنف رجلٍ يلزم عليها مبادلته الودّ والاحترام ، بَعُدَت عن أهلها هي الأخرىٰ حين سكنت مع زوجها في مدينة الرَّقة ، ووجدت في زوجها كلَّ صفات الرَّجل المثالي ، كان يعجبها منه ثقته المطلقة فيها ، فلا يقطع أمراً دون مشورتها ، حتّىٰ تلك الأمور الّتي تتعلّق بعمله وتجارته مع أبيه وإخوته .

بيد أنَّها ظلّت تحمل في صدرها حرقةَ الحبّ وهتونه بخيالاته وشروده وتداعياته المجلجلة في النّفس . كانت لمجرد ذكر اسم سعيد أمامها ـ أيّ سعيد ـ تصاب برجفةٍ يطغىٰ تأثيرها على عقلها ، فتغيب في سباتٍ وصمتٍ غير مدركةٍ ما يجري حولها .

أمّا سعيد . . فقد قضىٰ حياته الدِّراسيَّة بجدٍّ ومثابرةٍ ، بات مُغرماً بدمشق مولهاً بها أشدَّ الوله ، حيث أكسبته إقامته فيها ذكاءً معرفياً غنياً بالمعارف والثقافات المختلفة ، وكذلك هوايات متعدّدة الأفنان والثِّمار اليانعة ، فطفق يخصف على حياته من أوراقها مواريا حزنه واكتئابه ، فلا يرىٰ إلاّ جانياً لثمار العلم وفنونه ، مشغولاً بالمطالعة والبحث في أروقة المكتبات العامة والخاصَّة الّتي تزخر بها دمشق .

رغم انشغاله هذا كان يولي دراسته الجامعيّة اهتماماً بالغاً ، فتوالت سنوات الدِّراسة الجامعيَّة سريعاً ، وتصرّمت أيّامها بحصول سعيد على الإجازة الجامعيَّة في الفلسفة بتفوّقٍ وامتياز ، الأمر الّذي

خوّله متابعة الدّراسات العليا ، لكن عودته إلى مسقط رأسه « اللاذقيّة » وانشغاله بالأعباء الحياتيّة منعه من متابعة دراسته العليا ، فبات يفكّر بالزّواج . . فتزوّج من فتاة جامعيّة تحمل إجازةً في التّاريخ ، تعرّف عليها صدفةً في المدرسة الّتي عُيّن فيها فور تخرّجه ولم يكن زواجه من تلك الفتاة « حنان » زواجاً تقليدياً يبغي من ورائه إكمال نصف دينه ، أو تحصيل نصفه الآخر كما يقولون ، وإنّما الزّواج في عرفه قضيّةٌ مركزيّةٌ كبرىٰ في الحياة ، تحقّق استمرار الوجود على الوجه الأكمل مع تفتّح العمر على مراحلَ جديدةٍ هي في تصاعدٍ زمنيٍّ نحو الأعلى دوماً .

بعد أن أنجبت منه زوجته ثلاثة أولادٍ ، توّقفت علاقته معها على مفترق طريقٍ خانقٍ بالنّسبة لحياته ، العودة أو الاستمرار . . اختار الثانيّة طبعاً لأجل أولاده ، حفاظاً على صحتهم النفسيّة ومكانتهم الاجتماعيّة . . عنفوانه الطّموح دفعه إلى ترتيب أفق حياته الزّوجيّة على نحوٍ أمثل ، اصطدم بواقعٍ مرير . . فزوجته لم تكن تدرك أنّ الزّواج مشاركةٌ وجدانيةٌ بين الرّجل والمرأة أكثر منه علاقةٌ ماديّةٌ فحسب . . فضلاً عن ذلك كانت حادّة الطّبع ، عصبيّة المزاج سريعة التنكيد ، يطيش لبّه من فورانها وكلامها الّذي يخلو أحياناً من الاحترام . . فهي علىٰ عكسه تماماً ، طبعاً وذوقاً . . ! ؟

ساقته الأقدار يوماً للتّعرف على فتاةٍ جامعيّةٍ ، عمرها يطابق

عمره تماماً في نهاية العقد الثّالث دخولاً إلى العقد الرّابع . . وجد فيها ما يعوّضه عن النّقص العاطفيّ في علاقته مع زوجته الّتي صبر على سوء عشرتها طويلاً ، نصحها وحذرّها مراراً . . فلم ترعوِ ، واستمرّت عاكفةً على نكدها عكوف الرّيح الهوجاء على إعصارها يوم الحصّاد . . !

لم يكن عسيراً عليه الزّواج مرّةً ثانيةً . . خاصّةً وأنّه لاقىٰ التشجيع من كثيرٍ من أقربائه وأصدقائه الّذين خبروا حياته وعلاقته الفاشلة مع زوجته . . !

ظنّ سعيد أنّ زواجه الثّاني من « ثريّا » سيدخله أضواء الحياة الزّوجيّة الهانئة . . ! فما إنْ تُوّج هذا الزّواج بالمولود الأول ثمّ الثّاني ، ويوشك الثّالث أنْ يستهلّ إلى الدّنيا ، حتى دبّت الغيرة تفخُّ وتنفث سمّها بنشازٍ متعمّدٍ من طرف « ثريّا » . . فغيرة المرأة من ضرّتها سمٌّ زعافٌ يتجرّعه الزّوج علىٰ الدّوام دون أن يشعر . . ! يتلف أعصابه ، ويدمّر كيانه ، ولا تخفى العاقبة وسوء النتيجة . . ! لا حول ولا قوّة إلاّ بالله ، كان يتلفّظ بها تكراراً ومراراً خلال يومه مع تنهّدٍ يسمع دمدمته كلّ من حوله . . !

بدأت الخلافات الزّوجية تلقي بشررها الملتهب بين الزوجين ، علىٰ وجهٍ غاب فيه الودّ والوئام ، وغرقت فيه أقدامهما في أرضٍ موحلةٍ جراء ذلك الغباء المتصدّح الّذي كان يجب أن تسود فيه

السّكينةُ والرَّحمةُ من أوسع أبوابهما . . !

كان سعيد أكثر تأثراً بهذه الأجواء العائلية المحمومة . . خاصَّةً أنْ عمله يعتمد على المهارات العقليّة والذّهنيّة بالدّرجة الأولىٰ . . ! أُرْهق فكره ، وتشتّت ذهنه وضاع منه كثيرٌ من الوّقت الّذي ذهب سُدىً من غير نفعٍ . . !

بعد الولادة الثّالثة اعتقدّت « ثريّا » أنّ الحبل قد شُدَّ بإحكامٍ حول عنق زوجها فلن يستطيع الإفلات من جنون غيرتها ، وسلبيّة طلباتها وإملاءاتها عليه بما ترغب . بلغ تهديدها المتعمّد لزوجها حدَّ النّشوز والخروج عن طاعته بترك منزل الزَّوجيّة والإقامة في بيت أمِّها الّتي طعنت في السِّن وتقيم وحدها ، وبالطّبع هي بحاجةٍ لمن يرعاها ويسهر على راحتها . . . فشرطت على زوجها طلاق زوجته الأولى نكايةً بها . . ! وجدتْ أنّه لا غضاضة عليها من ضرب عصفورين معاً بحجرٍ واحد من جهةٍ تستّغلُ كيدها هذا . . طلاق ضَرّتها ودفع زوجها للإذعان لمطالبها ومآربها فلا يخالف لها أمراً . . ومن جهةٍ أخرىٰ رعاية أمّها . . !

فما أشقاه من مصيرٍ طوّق بالهمِّ حياتك يا سعيد ؟! . . فما انفّك لسانه عن تريد العبارة : قمنا من تحت الدلف . . وجلسنا تحت المزاريب . . ! إشارةً إلى فشله الذّريع في زواجه الثّاني .

وأمام تحدّيها وإصرارها على رأيها . . انتهىٰ الأمر بينهما إلى

الطّلاق . . أجل الطّلاق علاجاً لحالة مُستعصيةٍ في جسم العلاقات الزّوجيّة . . حسنٌ يا ثريّا اخترتِ المضيَّ في طريقٍ موحلٍ بالكيد والرّعونة . . ! ولم ترضَي بالسّكينة والرّحمة سبيلاً تمضين فيه في قطار الحياة الزّوجية ؟! . . لا بدّ إذاً من عملٍ جراحيٍّ يستأصل فيه السَّرطان ، وتعودي بعده إلى رشدك وصوابك . . !

فسعيدٌ كان قد اتّخذ قراره هذا مؤقتاً ريثما يهدأ الإعصار وترسو السّفينة على الشاطىء بأمان ، وطلباً لهدوء البال ، والعودة إلى نشاطه وعمله الفكريّ بعد أن جمَّدته رياح الشّتاء ومَرارة العلاقات الماطرة مشكلَّة سيولاً جارفةً من الخلافات والمشكلات الزَّوجية المستعصية .

نعم . . وجدها سعيدٌ فرصةً ليستعيد ترتيب أوراقه من جديد ، والتَّفرغ لعمله لا سيّما أنّ أحداثاً عاصفةً تستجرّ البلاد والعباد نحو نفقٍ مُظلم لا نور فيه ولا أمان . . فها هي الأمور والأحوال . . تمشي في تخبّطٍ وضياع على طول الوطن العربيّ وعرضه منذرةً بالخطر ، خاصةً بعد أن طفا فوق مياهه العكرة مصطلح « الرّبيع العربيّ » كنايةً عن انتفاضة الشّعوب العربيّة ـ في بعض أقطارها ـ وثورتها على حكوماتهم مطالبين بالحريّة ، وإسقاط النّظام . . ! كانت عدوىٰ هذا الرّبيع الدّامي تنتقل من قطرٍ إلى آخرٍ ، على نحوٍ عجيبٍ مثيرٍ للشّكوك ، يضع أكثر من إشارة استفهامٍ حول انتقاله . . ؟ كعدوىٰ الإيدز وجنون البقر . . !

تابع سعيدٌ ـ بحكم عمله كاتباً ومؤلّفاً ـ الأحداثَ بشغفٍ وحرصٍ شديدين ، فلم يكن مصطلح « الرّبيع العربي » يروق له ، ولا يصفو لذهنه ، . . حتماً لو اقتفينا أثر هذا الرَّبيع لتبيّن لنا ما يكمن وراءه من دسائس ومؤمراتٍ لا تمسّ أمن البلاد واستقرارها فحسب . . وإنّما تمسّ قِيَمَنا وعقيدتنا وأخلاقنا في مجتمعنا النابض بالمحبّةِ والسّلام بين جميع أبنائه بمختلفِ أطيافهم وانتمائاتهم .

صحيحٌ أنّ سعيداً في البداية لم يكن مغموراً لدرجةٍ كبيرةٍ في تقلّبات هذه الأحداث كونه كان منشغلاً في مشكلاته العائليّة . . فليس غريباً أن نراه مضّطراً إلى عدم الغوص بأسباب هذه الأحداث ومسبّباتها بدايةً ، كما أنّ وباء الرّبيع العربيّ برياحه الّتي تحمل الرِّمال الحمراء ، في وقتٍ شعر فيه باستيقاظ حبّه لمريم في قلبه من جديد ، ونهوض ذكرياته الدّفينة في نفسه لتسطع في مخيلته ، كان كثير التأمّل في ضياع حبّه لمريم وخسارته لها ، فيرّدد بينه وبين نفسه بحرقةٍ وألمٍ : لو كانت مريم شريكة حياتي ، وتقاسمني عيشي وحبّي ما كنت لأقع في مغبّة الخلافات الزَّوجيّة مع زوجتين نكدتين . . وما كنت أمضي في حياتي كالرّاعي بين نعجتين لا يعرف أين يحدو عصاه . . ؟!

وما كان يصدّه عن عواطفه الجيَّاشة وانسيالها ، إلاّ انشغاله بهموم العيش الّذي بات يرهق كواهل الرّجال ، ويحمّلهم تعباً

وإعياءً يفوق طاقاتهم عشرات المرّات . .

فكّر يوماً في حال البلاد والعباد ـ والدُّولار الّذي يحكمنا اقتصادياً ترتفع عمولة صرفه أضعافاً مضاعفةً ـ والغلاء يستعر أواره بشكلٍ لا يطاق ، ولا يتناسب مع دخل الفرد . قال سعيد في نفسه : هاهنا يكمن بيت القصيد . . !

المطلوب دوماً . . إفقار الشُّعوب العربيّة وتشريدها كي لا تفكّر إلاّ بتأمين طعامها وشرابها . . ! ومعنى هذا أنها لم تعد قادرة على التّفكير بقضاياها المصيريّة الكبرىٰ . . وخاصّةً القضيّة الفلسطينيّة ، والتّهديد المرهون بوجود الكيان الصهيوني الغاشم على أرض فلسطين ، وهضبة الجولان السّوريّة . .

كانت هذه الحقيقة الكبرىٰ ، نظرة غالبيّة الطّبقة المثقّفة الواعيّة من أبناءِ المجتمعات العربيّة وبشكل خاصٍّ مثقّفي دول المحور . . محور الصّراع العربي الإسرائيلي وبشكل خاصٍّ ، دول المواجهة والمقاومة متمثّلةً بسوريا ولبنان وفلسطين بالدّرجة الأولى . . فالمثّقفون العرب الواعون يفهمون السّياسة العالميّة اليوم على أنّها فن الكذب والخداع . . فالنّزعة البراغماتيّة النفعيّة تطغىٰ علىٰ جميع الحكومات الغربيّة وعلى رأسها الولايات المتّحدة الأميركيّة .

كانت الأحداث . . أحداث الرّبيع العربيّ الأجوف من كلّ شَيءٍ حتّىٰ من الحريّة المنشودة ، والأمرد من كلّ شعرةٍ تميّز فيه بين الحقّ

والباطل ، تشغل بال سعيدٍ ، وتستقطب كلّ اهتمامه ، مفكّراً بمجرياتها . . محلّلاً لأحداثها . . !

فسقطت بالأمس القريب « تونس » تحت براثنه ، ولو كان هذا السّقوط سلميّاً فازدادت معاناة الشّعب التونسي الشّقيق وعادَ يضربُ أخماساً بأسداس ثمّ يعدها . . سقطت « ليبيا » في أتونه المُسْتَعر . . ! وها هم الليّبيون يسفكون دماء بعضهم بعضاً حتّى طغىٰ حمّام الدّم فيها على حقول نفطها . . ! ووقعت في شِراكه مصر العروبة . . أمّ الدّنيا . . ! فبات الشّعب المصريُّ يبحث ملهوفاً عن رغيف العيش أكثر مما مَضَى . . ! ثمّ أخذ بعصفه المأكول « اليمَن » الجريح فعادَ شرّاً مكاناً وأضعف جنداً ، وأعوز حيلةً . . !

أشدّ ما كان يقلق خلد سعيدٍ ، عصابةٌ دمويّةٌ ضجَّت بها الدّنيا ، بَثَّت أخبارها جميع وكالات الأنباء العالميّة والعربيّة ، ناقلةً فظائعها وبشاعتها ودمويّتها الّتي تشبه انفلات وحوش الغاب . . ! بمخالبها المستنفرة كرهاً وعداوةً وشراسةً على جُثث فرائسها وضحاياها . . !

أجل . . فئةٌ من شراذم الأرض أتوا من كلّ حدبٍ وصوبٍ ، جعلوا الدّين ستاراً تخفق من ورائه رايتهم السّوداء التي تشبه عصير الظلمات الّذي يبدّدُ النُّور واخضرار النّجوم في السّماء . . ! ذقونهم النّجسة تنضح بالنّفاق السّلوليّ مطيّةً لمن يقفون وراءهم من قوىٰ

التآمر الخيبريّ الغاشم تحقيقاً لأطماعهم السّياسيّة والإقتصاديّة في طول البلاد وعرضها . . !

هذه الفئة المكراء ، ظهرت أوّل ما ظهرت ، في بعض مناطق العراق ، أطلقت على نفسها . . تنظيم الدَّولة الإسلاميّة في العراق وبلاد الشّام ، وكنّت نفسها بداعشٍ ـ بئس الاسم والمسمَّى ـ عاثت في الأرض فساداً ، وتدميراً وقتلاً وأهلكت الحرث والنّسل دون تفريقٍ بين مقاتلٍ وأعزل . . وصغيرٍ وكبيرٍ ، وامرأةٍ وشيخٍ هرم ، حتّىٰ لم يسلم من إجرامهم الشّجر والمدر . . !

كان حقيقاً على سعيدٍ يومها السّفر إلى دمشق لتسليم بعض أعماله الأدبيّة لإحدىٰ دور النّشر هناك . . كانت أحداث ثورة الخراب والدَّمار في بداياتها الأولىٰ ، يجتاح وباؤها عابراً من الجنوب باتّجاه الشّمال ، من درعا إلى بعض ضواحي دمشق . . ثمَّ إلى حمص وبعض قراها . . تهيّب سعيد في البداية السّفر وتردّد بعض الشّيء . . فطريق دمشق حينها لم يكن آمناً ، في بعض جوانبه وأجزائه كان هدفاً استراتيجيّاً تُمطر عليه قذائف مسلحيّ الثّورة المزعومة لقطع شرايين العاصمة عن أوصال بقيّة المناطق والمدن ، لتعطيل مرافق الحياة العامّة وشلّ حركتها فتتوّقف مصالح البلاد والعباد عن الدّوران . . ! مكراً بالحكومة والنّظام على حدّ زعمهم . . !

قرّر سعيد في النّهاية السّفر . . وفي دمشق كان صوت

الانفجارات بصداها البعيد يُرجِف قلبه ، لا خوفاً على نفسه ، وحذراً على حياته ، وإنما خشيَةً على دمشق أن يتلوَّث قلبها النابض بالعروبة بغبار الحرب والنّيران .

بعد انقضاء عمله أزمع السَّفر سريعاً عائداً إلى اللاذقيَّة ، استقلَّ الحافلة وقلبه يقطر حزناً لأنَّ نفسه لم تكتفِ بالسّعادة والغّبطة لتنسّمِ هواء دمشق العليل الذي يجلو صدأ حزنه وآلامه ويزيح الكآبة عن قلبه . . ! إنهم اغتالوا ذاك النَّهار الدّمشقيّ العارم بحنين الياسمين للقلوب والمبهج الواله . . وقصفوا اللّيل الشّاميّ المزدهي بالأضواء الكاسحة للظلام . . وسمّموا عبير الياسمين النَّاضح بعطره اللّيلكيّ ، بوباء قذائفهم المحملّة بالكره والإنتقام .

لم يكن ليقع في روع سعيد ذاك اليّوم ـ والحافلة تمضي سريعاً بركابها ـ أنّ هذا اليوم سيبدو أسعد ما يكون قبله . . ! بعد أن علَّمته الحياة عدم توقّع السّعادة ، خاصّةً في غضون هذه الظّروف . . !

عندما وصلت الحافلة إلى منتصف الطّريق ، توقفت عند الاستراحة المعهودة قبيل مدينة حمص ، ترجّل الرّكاب جميعاً من الحافلة بناءً على طلب السائق ومعاونه اتّخاذاً لتدابير الحيطة والسّلامة ، ترجّل سعيد ودخلَ بَهوَ الاستراحة ، واتخذ مكانه مستريحاً على إحدىٰ الطّاولات طالباً من النّادل أن يحضر له فنجاناً من القهوة ، عَمَدَ إلى إطفاء وإقفال « جوّاله » عن الرّنين ، هروباً من

اهتزازه ورنينه المتكرّر من قبل أولاده وزوجته وبعضَ الأصدقاء الذين يتصلون ليطمئنوا على سلامته من أيّ حادثٍ مفاجىءٍ يباغت المسافر عادةً . بينما هو ساردٌ في أفكاره يرتشف فنجان القهوة بهدوء ، لاحت لعينيه ـ اللّتين لم تتوقفا عن الدّوران والحملقة في جموع النّاس المكتَظّين داخل بهو الاستراحة ـ امرأتان ترتديان عباءةً سوداء ، ويُغطّي رأسيهما منديلٌ أبيضٌ يغطّي جميعَ شعرهما ، لا يبدو من أنوثتهما ، إلا الوجه والكفّين فقط . . !

ابتعدتا وغابتا بين جموع المسافرين كمن يبتغي قضاء حاجةٍ ، وبعد لحظاتٍ بدَتا مرّةً أخرى ، مَشتَا بين صفوف الطّاولات الممتلئةِ بالجالسين . . اختارتا طاولةً لا تبعد عن سعيدٍ إلاّ بعض الخطوات . . لم يعبأ بهما بدايةً ولم تسترعيا انتباهه . . غير أنّ واحدةً منهما وهي الأصغر سنّاً على ما يبدو لبصر سعيدٍ ، شرعت تنظر إليه بحملقةٍ شديدةٍ . . أشاحَ بوجهه عنها حياءً إلى الجهّة الأخرىٰ . . ولكن انتبه فجأةً إلى صوتِ النّادلِ يطرق سمعه بخفّةٍ وبطىءٍ يقول لهما : إلى أيّ مدينةٍ وجهتكما ؟ . . إحداهنّ تجيب النّادل بصوتٍ مرتفعٍ رَنّ في أذني سعيدٍ يذكّره بصوتٍ أنثويٍّ شكَّ أنّه يعرفه : إلى الرّقة . . !

التفت على وقع هذا الصّوت . . حملق في المرأة الّتي ردّت على النّادل ، لا نستطيع تصوّر الدّهشة الّتي باغتته حينها في موقفٍ لم يكن بحسبانه . . !

إنَّها الصّدفة تعوّد عليها جاليةً إليه الأقدار غير المأمولة دوماً . . الوجهان يلتقيان بعد غيابٍ طويلٍ استغرق اثنتين وعشرين سنة . . !

استفاق وجيب قلبه ، وتسارعت خفقاته . . لم يستطع صبراً . . وراحت شفتاه تنشّقان عن ابتسامةٍ كان صعباً عليه أن يبتسم مثلها من قبل . . وهتف من أعماق قلبه بصوتٍ خافتٍ جيّاش لا تسمعه إلا نفسه :

مريم . . . مريم . . ؟!

رنت إليه مريم بحنانٍ وشفقةٍ محاولةً النّطق باسمه بتحريك شفتيها من غير إصدارِ صوتٍ ، ولو كان همساً . . فهم سعيد أنّها محروجةٌ من المرأة الّتي ترافقها ، وكلّه اعتقاد أنّها ستفعل أمراً ما لانتزاع كلمةٍ، كلمةٍ واحدة منه . . !

صمت سعيدٌ يتأهّب حراكها . . ففتحت حقيبتها وتظاهرت أنّها تبحث عن شيء بداخلها لتصرف انتباه صاحبتها أن يراودها الشّك فتفسد عليها ما هي عازمةٌ على فعله . . .

فجأةً ، حملت « جوّالها » بيدها واتّجهت صوب باب بهو الاستراحة ، واتخذّت مكاناً قصيًا عن أعين المسافرين . . . لحقها سعيدٌ وئيداً ، دون أن يُشعر به أحداً . . عندما دنا منها وتدلّى بعاطفته الجيّاشة اشتياقاً إلى رؤيتها لم يتمالك نفسه عن الهيام بعد طول غيابٍ مسهبٍ في السّنين البعيدة المتصرّمة . . فمدَّ يده على رأسها فوق

المنديل النّاعم.. فسرت حرارة رأسها في إحساسه وأعصابه ، مبدّدةً ظلام سنين العذاب الّتي عاشها ، قال لها : ما فتئتُ منذ فترةٍ وجيزةٍ أذكرك . ؟ فها قد رأيتك الآن وصدق حدس إحساسي بهذا اللّقاء... !

كان وجه مريم قد اعتراه تَغيّرٌ في بعض ملامحه المتألّقة ، فخداها الأبيضان المتورّدان ، بدأ الترهُّل يحفر عليهما أخاديداً ونُدباً.. قال لها : كأنَّ الزَّمن جار على وجهك الوضّاء يا مريم.. ؟ ابتسمت مريم خفيفاً وهي تستعجل خَتْمَ اللّقاء الّذي دشّنَ خطوات البداية لعودة مدّ جسور التَّواصل بينهما من جديدٍ.. طلبت منه سريعاً رقم جوّاله كي تهاتفه فيما بعد ، شرع في إملاء رقم جوّاله عليها وهي تُسرع في تخزينه عبر ذاكرة جوّالها ، عندما انتهت من تسجيل الرَّقم وحفظه ودّعته على حين عجلةٍ من أمرها لتعود إلى شقيقةِ زوجها الّتي ترافقها في سفرها هذا.. !

كان هذا اللّقاء ـ بين سعيد ومريم ـ متداخلاً مع مجريات الأحداث الّتي تتطوّر في كلِّ يومٍ « وفي كلِّ ساعة » ، مترافقةً مع مشاعر الخشيَة والحذر ، من دخول البلاد في نفقٍ مظلمٍ لا يعلم بدايته ولا نهايته إلاّ علاّم الغيوب.. أينما ولّيت وجهك . فلا يطرق سمعَك إلاّ حديثُ النَّاس عن الأزمة والغلاء ، يتهيّبون بحذرٍ ، انحدار الظُّروف بهم نحو هاويةٍ سحيقةٍ من العنّف أو القحط والشّح في الدّخل والموارد.. !

بعد أن قطعت الحافلة منعطف افتراق حمص عن الطّريق السالك نحو المدن السّاحليّة ، توقفت الحافلة فجأة ، عند نقطةٍ تفتيشٍ ، يشرف عليها بعض رجال الأمن ، وعناصرٌ من الجيش . . . وكإجراء احترازي روتيني قام بعضهم بتفقد هويّات الرّكاب واحداً واحداً . . حرصاً منهم أن يكون بينهم دخيلٌ من المناوئين المأجورين الّذين تستعملهم الجماعات الدّمويّة للقيام بأعمال التّخريب أو التّفجير . . ! فيُؤمر السّائق بالسّير بالحافلة بعيداً عن الطّريق الاسفلتيّ ، والعبور إلى طريقٍ ترابيٍّ محفوف بالأشجار المكتظّة بجانب بعضها البعض ، مُشكِّلة ساتراً طبيعيّاً يحجب عن القناصين رصدَ المارّة فيه ، أو أيّ سيارةٍ عابرةٍ ، حيث كان قناصو المسلّحين يكمنون فوق الآكام القريبة . . !

سارت الحافلة في الطّريق التّرابيّ على مهلٍ مدّة نصف ساعةٍ ، ثمّ وجّه السائق مسارها نحو الطّريق الاسفلتي الآمن من مراصد الغدر والإجرام بحقّ المواطنين المدنيين المسالمين . .

تساءل سعيدٌ في نفسه ، هل هذه هي الحريّة المنشودة الّتي يهتف بها هؤلاء الذين شقّوا عصا الطّاعة . . حقّاً إنّهم يبغون الفوضى والإجرام ، والنّيل من القانون الّذي يحمي النّاس وحقوقهم ، كما يملي عليهم أربابهم بذلك . . تارةً يفجّرون ويدمّرون باسم الحريّة . . وتارةً يقتلون باسم الدّين . . فتعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً . . !

وفور وصول الحافلة إلى اللاّذقيّة . . توجّه سعيد إلى بيته . . وجد زوجته في انتظاره بفارغ الصّبر ـ أما أولاده فكانوا مسرورين بعودته من دمشق بسلامٍ وأمانٍ . . . لاحظت عليه زوجته السّعادة والابتهاج علىٰ غير عهده . . فما أحبت خرق سعادته ، وطرح الأسئلة عليه ، وإنّما هيأت له مائدة الطّعام ووضعت الأطباق بشكلٍ رتيبٍ مراعاةً لذوق زوجها ، عادتْ أقلّ نكداً ومقتاً ، وأكثر ضحكاً وهدوءً ، تروم من ذلك كسب زوجها إلى صفّها نكايةً بضرّتها . . !

كانت مريم قد أرسلت له رسالةً عبر « جوّاله » وهو لم يزل في طريق العودة إلى اللاّذقية على متن الحافلة ، لكن ضجيج الأصوات داخل الحافلة منعه من سماع صوت الرّنين ، ولذا عندما أراد مهاتفة بعض أصدقائه وجد شارةَ الرّسالة ماثلةً على الشّاشة . . فتح صندوق الرسائل الواردة على آخر رسالة وصلته ، فإذا هي مريم ، تخبره فيها عن سبب سفرها إلى دمشق ، مراجعةً للطّبيب بصحبة زوجها ، والنّقطة الأساسيّة في الرّسالة هي إخبارها له بعدم إنجابها أيَّ مولودٍ حتّى الآن . كون زوجها يعاني من مشكلَة فيزيولوجيّة . . ومن الممكن انعدام الإنجاب في المستقبل . . وذيلت رسالتها بهذه العبارات الّتي تشحذ عزمه إلى مزيدٍ من الصّبر والاعتماد على النّفس : تأكّد حين تنكسر أنه لن يرحمك سوىٰ نفسك ، وحين تهرم لن ينصرك سوى إرادتك . . ! فقدرتك على الوقوف لا يملكها سواك ، فاعتنِ بنفسك واحمها . .

تذكر سعيد أنَّه قرأ مثل هذه العبارات يوماً على إحدى رسائل التَّواصل الاجتماعي فلم يكترث لها وقتها.. لكنَّها من أنامل مريم صار لها معنىً عظيماً وعبرةً متجدّدةً.. فهيهات.. هيهات أن تفلتي يا مريم من حبيبك سعيد هذه المرَّة.. !

وفي صباح اليَوم التَّالي ، بعد خروجه من المنزل قاصداً السَّوق لشراء بعض الحاجيات ، اهتزَّ جوّاله وعلا رنينه فجأةً.. وإذ به صديقٌ قديمٌ من أيّام الدِّراسة في دمشق... صديقه « محمد » قادماً من بانياسٍ بزيارة اضطراريَّة إلى اللاّذقية لقضاء حاجةٍ « ما ».. أخبره أنَّه ينتظره في مقهى معروفٍ ليحضر إليه دون حرجٍ.. ! وفور وصول سعيدٍ إلىٰ هناك استقبله « محمد » بحرارةٍ عارمةٍ محتفياً بلقائه بعد غيابٍ طويلٍ.. ! استرجعا في ذاكرتهما أيّام الدِّراسة في دمشق وهما يزفران بالحنين إلى روعتها وجمالها ، وخلوّها من الهموم والمتاعب ، إلاَّ في مكابدة العلم وتحصيله...

أجل.. استعادت ذاكرتهما محطات حياتهما اليانعة بالعلم والثَّقافة في دمشق ، فكم كان سعيدٌ مولعاً بعشق دمشق ، فقد تحقَّقت له فيها آماله في تحصيل العلم ، وآماله في نظم الشِّعر ، ونثر الأدب الرّفيع.. قضى فيها أزهىٰ سنوات شبابه ، واكتسب أصدقاء القلب ، ومسامري العقل ، الّذين قطعوا المسافات الطّوال ، حالهم حاله ، قادمين إلى المدينة الشّامخة ـ شموخ التَّاريخ النّابض بالمحبة

والعطاء ـ من مختلف الأصقاع سعياً إليك يا دمشق . . !

أدار صديقه محمد دفّة الحديث في الاتّجاه بما يشغل النّاس اهتماماً في قساوة هذه الظّروف التّي تمرّ بها البلاد والعباد ، فقال : كيف ترىٰ هذه الحال يا صديقي ؟ وأيةُ هاويةٍ سحيقةٍ تستّجر البلاد وتستدرجها ؟! . .

صَمَت سعيد قليلاً ، ثمّ قال : تسير نحو المجهول طبعاً . . لا يمكن للمرء أن يتكّهن إلى أيّ جهةٍ تمضي مجرياتها وأحداثها ؟ . . فالغلاء مسُتشرٍ ، والموت ضارب بأطنابه في كلّ وادٍ وفي كلّ نادٍ ، مقطّعاً الأكباد والمهج ، ومقرّحاً العيون والقلوب ، في كلّ يومٍ هناك زفّةٌ جديدةٌ إلى السّماء في موكب الخالدين . . باتت أغلب البيوتات لا تخلو من حزن وعويلٍ بكاءً على موتاها الّذين قضوا حتفهم . . !

فمتَى يشرقُ ضوء السّلام لتستعيد البلاد عافيتها ؟! وينفض النّاس عن كواهلهم غبار هذه الحرب الرّعناء ، الّتي تُصنع في أروقة السّاسةِ الغربيّين ، وتصدّر إلى كلّ بلدٍ عربيٍّ يقف في وجه أطماعهم وأهدافهم الاستعماريّة . . حقاً إنّها مؤامرةٌ كبيرةٌ غزت بغيومها السّوداء ، وبرياحها العاتيةِ الصّفراء ، محملّةً بالموت والسّم الزّعاف ، ناشرةً الرّعب والموت في بلادنا وأوطاننا . . ؟!

ردّ عليه محمّداً مؤيّداً وجهة نظره قائلاً : صدقاً يا صديقي ، إنّها

مؤامرةٌ دُبرت بليلٍ . . ! ونسج لها عرّابوها الخيوط الشّائكة الّتي تشابكت مع حياتنا ، واستولت على آمالنا استيلاءً قويّاً غامضاً ، مُخلّفةً وراءها الهلع ورذالة العيش ، ومصادرة الفرح والسّعادة ، فبتنا كأنّنا نعيش في جوٍّ فلسفيٍّ أسطوريٍّ معقّدٍ ، إلى حدٍّ ما يشبه أجواء الأساطير الإغريقيّة القديمة . . !

فجأةً . . قاطع سعيد كلام صديقه قائلاً له : اِصمتْ . . ! هل تعلم أنّي صادفت مريم البارحة وأنا في طريق عودتي من دمشق ؟! . .

ردّ محمد عليه ، والدّهشة تملأ عينيه : ماذا تقول ؟ . . مريم . . حبيبتك القديمة . . . بعد هذه السّنوات الطّويلة . . ؟ وأين هي الآن . . ؟

ـ يا صديقي إنّها متزوجةٌ من رجلٍ ثريٍّ ، وتقيم معه في الرّقة . . ولحسن الحظّ أنّها لم تنجب له أولاداً حتّى الآن . . وهذا ما يُطمئِنُني في المستقبل . . !

ـ يالله في الرّقة ! . . ساعدك الله يا مريم . . ألمْ تسمع الأخبار البارحة أو اليوم في الصّباح الباكر . . ؟!

بُهت سعيد ، وأُسقط في يده . . فهم من كلام صديقه أنّ مكروهاً ما سيحيق بمريم فاهتزّت أذنيه ، وقطب حاجبيه ، كأنّه يسمع أمراً فريّاً . . !

ـ ماذ تقول يا صديقي... الأخبار.. ؟! لا لم أسمعها منذ أيّام.. ؟

ـ وكالات الأنباء العالميّة والمحليّة ، ترصد تحرّكات « داعش » في العراق وسوريّة فبعد استيلائهم على مسافاتٍ شاسعةٍ من منطقة الأنبار في العراق ، دخلوا إلى مدينة الموصل فأشاعوا فيها الخراب والدّمار ، وهجّروا قسماً كبيراً من سكانها ، وعلى رأسهم زعيمهم المعتوه ، خليفةٌ يترأّس دولة الخلافة الإسلاميّة في العراق وبلاد الشّام ، خطب خطبة البيعة في جامع الموصل الكبير ، موجّهاً في هذه الخطبة عصاباته الدّمويّةَ إلى غزو الأراضي السّوريّة باتّجاه الرّقة ودير الزّور آمراً إيّاهم بتطهيرها من الكفّار على حدّ زعمه.. ! وضمها إلى دولة الخلافة الجديدة .

معنىٰ ذلك.. أنّ هناك شرّاً مستطيراً يحيق بمريم ، ووجودها هناك خطرٌ على حياتِها. هؤلاء الدّاعشيون يبيحون لأنفسهم قتل كلّ من يرىٰ خلاف رأيهم.. ويذبحون الّذين يرفضون الانضمام إليهم من الرّجال والشّبّاب والأطفال... يَسْبُون النّساء ويتخذوهنّ حليلاتٍ ولو كنّ على ذمّةِ رجلٍ.. ! ولأجل ذلك ابتدعوا طريقةً جديدةً لعقد ما يسمونه « جهاد النّكاح » الّذي يأباه الشّرع الإسلاميّ الحنيف ، ويحرّمه بشدّة ؟!.. يضع أحدهم كفّ يده على رأس المرأة ، ويكبّر ثلاث مرّاتٍ فتصبح حليلته شرعاً ودِيناً على حدّ زعمهم... !

تماسك سعيد بجسده جالساً على كرسيّه ، وقال : ماذا تقول . . وعن أيّ دينٍ يتحدَّث هؤلاءِ ، وأيّة شريعة من شرائع الغاب يتَّبعون . . ؟ الإسلام منهم براءٌ . . براءة الذّئب من قميص يوسف الصدِّيق . . !

توادع الصَّديقان على أمل اللِّقاء مجدّداً ، فأحبَّ سعيدٌ أن يخلو لوحده بعيداً عن الضّجيج والأصوات المنبعثة من محركات السَّيارات الّتي تسير في الطُّرقات المزدحمة ، فيمم وجهه شطر أحد الطُّرقات الهادئة ، ليتمكّن من إرسال رسالةٍ سريعةٍ إلى مريم ، يستطلع فيها أخبارها ، وكيف باتت أوضاعها في غضون التَّطورات والأحداث المريرة المستجدّة كلّ يومٍ . . وما هي إلاّ لحظاتٌ قليلة حتَّى وصله ردٌّ من مريم تقول فيه : الأوضاع عندنا تسير من سيِّءٍ إلى أسوءٍ ، الأنجاس على وشك أن يطغوا في البلاد ويكثروا فيها الفساد والخراب . . بعض المأجورين من عملائهم يضعون شعاراتهم مختفين بظلام اللَّيل البهيم ، ويعلقون المنشورات في الشّوارع والأماكن العامة ، وعلى أبواب الدوائر الحكوميّة ، يتوعدون فيها بالويل والثّبور كلّ من يقف بوجههم ، أو يتعاون مع السُّلطات الحكوميّة . . فزوجها البارحة مساءً عاد من متجره هلعاً تكاد نفسه تنفطر همّا وحذراً من عيونٍ داعش في المنطقة ، وضعوا له تحت باب محلّه منشوراً مكتوباً فيه : سنأتي إليكم أيُّها الكفَّار . . سنقطع رؤوسكم ونعلّقها في السَّاحات لتكونوا عبرةً لكلّ معتبر . . ! في

آخره آيةٌ قرآنية أريد بها باطلٌ : « ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب » ؟ . .

وجرىٰ على ألسنة النَّاس أنَّ هذا المنشور لا يضعونه إلاَّ لكلّ مَن يظنّون أنّه يتعامل مع السُّلطات الحكوميَّة حسب استطلاع العيون العميلة لهم . . قلت لزوجي : كلُّ المواطنين يخضعون للسّلطة الحكوميَّة . . فهل سيقطعون رؤوس جميع النَّاس . . . فئةٌ كبيرةٌ من المواطنين أنفسهم يشكلّون السّلطة الحكوميَّة في وظائفهم أو غيرها . . . فازداد زوجي هلعاً وخوفاً . . ؟

توسَّع الحزن والحذر في نفس سعيدٍ خوفاً على مريمٍ ، وطلب منها العودة إلى اللاَّذقيّة قبل وقوع أيّ مكروه لها . . ولكن كيف تترك زوجها الَّذي أَنِسَت العيش معه ؟

توقَّفت الرَّسائل بينه وبين مريم فجأةً من غير سابقِ إنذارٍ ، أو إشارةِ طرفٍ منهما للآخر بالإكتفاء . . عندها ذهب سعيدٌ إلى السُّوق . . . اشترىٰ بعض الحاجيات ثم استحثّ خطاه سريعاً نحو المنزل . . وفور وصوله تسمّر على شاشة التّلفاز ممسكاً بيده « الريموت كونترول » متنقّلاً بين المحطّات الإخباريّة ، يتلّقف الأخبار الّتي تتعلّق بداعش وسيرها إلى الرَّقة . . فجأةً التقط خبراً يفيد أنّ العصابات المسلحة لتنظيم الدَّولة ، يتسرَّبون كالجراد المنتشر . . عابرين الحدود السّوريَّة العراقيّة إلى مناطق ومدن حوض الفرات

السوريّة ، وأنّهم باتوا على مقربة من الرَّقة وما يحيط بها من قرىٰ ونواحي ، كانت محطّتهم الفضائيّة الّتي تدعمها جهاتٌ أجنبيّةٌ وعربيّةٌ ، تبثُّ تحركاتهم في كلّ أرضٍ نزلوا فيها ، وتعتبر مصدراً للمعلومات بالنِّسبة لكثيرٍ من الفضائيات العربيّة والعالميّة ـ للأسف ـ لا تدّخر هذه الفضائيات جهداً ، في نقل صور الجرائم الحيّة الّتي يشيب من هولها الوليد ، وتقضُّ مضجع العاقل الحليم . . كم كانت تلك المشاهد بشعّة للغاية . . قطع رؤوس . . بقر بطون ، تقطيع الأجساد وحرقها . . الإعدام رمياً بالرصاص على مرأىٰ النّاس ، أو شنقاً بالحبال المتدليّة من الجسور وأغصان الأشجار ، وأعمدة الكهرباء المُقامة في الشّوارع والطُّرقات . . كانت هذه الجرائم الحيّة والمصوَّرة تثير الرّعب بينَ النّاس على نحوٍ غير معهودٍ ، كأنَّها سيناريوهات دراميّة تدّربوا على اقترافها في معسكراتِ جنود المارينز الأمريكي . . كان سعيد لا يشك بهذه الحقيقة ـ فهذه الجرائم يبكي من هولها الحجر والمدر ، وينسلخ من بشاعتها أديم الأرض ولحاء الشّجر . . مَنْ أنتم أيّها المجرمون الحانقون المتمرّدون علىٰ صوت السَّماء وحكمة الأنبياء . . من أنتم ؟ . . ومن أين جئتم ؟ . . ومَن يشدّ على أيديكم من قوى الإرهاب الغاشم ؟! تبّاً لكم أيّها القاتلون الغاشمون . . ؟!

فجأة . . استوقفت سيلانَ فكرِ سعيدٍ ـ وهو يفكّ عقدة المؤامرة ، المعقودة بإحكامٍ ماكرٍ حول عروبته وعقيدته وقيمها الإنسانيّة الخالدة

والرّاشدة ـ استوقفته مقابلة تجريها إحدىٰ الصّحفيات التّابعة لإحدىٰ المحطات الفضائية العربيّة ، لشابٍّ أسيرٍ نجا من قبضة هؤلاء الأنجاس وأفلت منهم بأعجوبةٍ . . من أهالي إحدىٰ قرىٰ جبال سنجار الممتدَّة بين العراق وسوريَّة . . يدلي فيها بمشاهداته عن جنون الإجرام الموغل في البشاعة واللاإنسانيّة ينتهجه هؤلاء الأنجاس . .

بعد أن قتلوا وذبحوا أهالي إحدىٰ قرىٰ جبال سنجار ، لم يبقَ على قيد الحياة إلا امرأةٌ جليلة القدر في قومها ، تشغل منصباً حكوميّاً رفيع المستوىٰ ، أسروها مع ابنها ـ الذي لم يبلغ الرّابعة من عمره بعد ـ في أحد معاقلهم الزّاخرة بوسائل التّعذيب البدائيَّة المروعة على نحو وسائل القتل والتّعذيب الّتي مرّت في التّاريخ الماضي للبشريَّة فيما يسمىٰ بمحاكم التفتيش العنصريّة . . ! الّتي قامت إثر سقوط الدَّولة العربيَّة في إسبانيا قديماً . . !

شدّت سعيداً بكليَّته ووجدانه وشعوره هذه الحادثة الّتي مكر فيها الأنجاس بهذه المرأة وابنها مكراً رجيماً لا يحسنه إلاَّ شياطين الإنس والجن . . يقول الشّابّ للصحفيّة الّتي تجري معه الحديث : عزلوا المرأة عن ابنها . . حبسوها في سرداب تحت الأرض معصوبة العينين ، وقيّدوا يديها وشدوها بجنزيرٍ إلى خلف ظهرها . . . وساقوا ابنها عنها إلى مكانٍ مجهولٍ ، فبقيت أسيرةً لوحدها . . !

* * *

« أنتم... أيّها الأشرار.. ؟! »

منع الأنجاسُ الطّعام عن المرأةِ الأسيرةِ ، المفطور قلبها على ابنها الّذي تجهل مصيره.. بقيتْ ثلاثةَ أيّام بلياليها لم ينزل إلى جوفها لقمةٌ واحدةٌ ، حتّى عَضَّ الجوع أحشاءها بأنيابٍ حادَّةٍ ، وأخذ منها كلّ مأخذٍ ، فلم تَعُدْ تمانع لو أطعموها التّراب والحجارة.. ! كانت تصيح مستغيثةً الحرّاس الّذين يدخلون عليها بين الفترة والآخرى للعبث بجسدها.. ! أو للطم وجهها كي تكفّ عن الصّياح ؟.. وفي اليوم الرّابع لجوعها ، دخل عليها أحدهم ، يحمل بيده طبقاً معدنيّاً ، تفوح منه رائحة شواء اللّحم.. كان اللّحم مُملوءاً بالتّوابل الّتي زادت من رائحته عبقاً وانتشاراً ليصبح أكثر لذّةً واشتهاءً للجائع كان « ابن الحرام » حامل الطّبق يتعمّد إدناء الطّبق من وجهها وأنفها.. ليبالغ في إثارة كوامن الجوع في بطنها.. كانت المرأة تبلع ريقها وهي تشتمُّ رائحة اللّحم الشّهي وهو بمحاذاة أنفها ، ثمّ يعمد « السّافل » لإبعاد الطّبق عن وجهها.. فتتوسل إليه راجيةً بصوتٍ منهك وراءه جسدٌ خائرٌ القُوّة هزيلٌ أضعفه الجوع.. كرّر « النّذل ابن العاهرة » هذه العمليّة عدّة مرات.. ! وعندما تأكّد

أنّ الجوع هد جسدها فلا تطيق احتماله ، أومأ لأحد الحرّاس بفكّ العصابة عن عينيها ، وحَلّ القَيد لأوّل مرّة عن يديها ووضع الطَّبق أمامها ، انكبّت بشراهةٍ تقطّع اللّحم بأسنانها ، كان من الصّعوبة بمكان مضغه ، أو تفسير طعمه في حاسة ذوقها . محرّكات إحساسها وإدراكها لا شكَّ معطلّةٌ بسبب الجوع القاتل . . ! الْتَهْمت اللّحمِ بشراهةٍ لا توصف حتىٰ امتلأ بطنها ، وتدشّت صحةً وعافيةً . . جلبوا لها الماء البارد ، وألفت منهم كلماتٍ لم تعهدها طيلةَ حبسها وما كانت لتتوقعها . .

كانوا يهنئونها على انتهاء الوجبة المقبّلة للشّبعان فكيف للجائع طويلاً . . !

يقولون لها : صحّة وعوافي . . ؟ وجبةً هنيئةً ؟ حتّىٰ أن أحدهم كان بالكاد ينطق العربيّة بلهجةٍ ثقيلةٍ غير مفهومِ الكلام ينطقه بثقلٍ شديدٍ في لسانه ، يقول لها : لحمٌ لذيذٌ (لاحيُمن لاذيذ) . . طعامٌ شهيٌّ (تعامُ سهيٌّ) . . لأنَّه كان من بلدٍ آسيويٍّ غير عربيٍّ من المرتزقَةَ المأجورين . . !

لكنّ أحد الأنجاس يقترب منها بهدوءٍ مدنياً وجهه من وجهها وقال لها هلْ تعرفين أيّ نوعٍ من اللّحم أكلتِ يا شاطرةٌ ؟! . . قالت : أظنّه لحم الأرانب . ؟ ضحك بسخريةٍ منها ، ونكز أنفها بطرف سبابته قائلاً لها : أكلت لحم ولدك . . ذبحناه . . وقطّعناه إرباً

إرباً . . ! وقدمنا لك بعضَه مشويّاً . . ظنّت المرأة بدايةً أنّ المجرم القاتل الواقف أمامها يهذر محاولاً استدراجها إلى بغيةٍ أخرىٰ . . فقالت له : لو كان لحم كلابِ المهمّ أكلتُ وشبعت . . ! كان إلى جانب هذا النَّجسِ المجرم ، كيسٌ أسودُ مدّ يده إليه واستخرج ما بداخله ، وإذْ به رأس ابنها . . . ولا نستطيع تصوّر ما جرىٰ للمرأة من ردّة فعلٍ بعدها . . المهمّ أن الأمر انتهىٰ بها إلى الموت كمداً وحزناً على ابنها الّذي عادَ إلى أحشائها مفروماً . سمع سعيدٌ القصّة كاملةً وكتب عنها في إحدىٰ الصّحف المحليّة منددّاً بجرائم الأنجاس ـ أعداء الله ، وأعداء الإنسانيّة جمعاء ـ محلّلاً من خلالها الهدف الرّئيسي من ظهور داعش تزامناً مع ظاهرة الرّبيع العربيّ .

أعداؤنا . . أعداء العروبة ، وأعداء الإسلام ، يبغون ضرب سمعةِ الدين وتشويهها من الدّاخل ، بدعمِ جماعاتٍ متطرّفة أكبر همِّها الدِّرهم والدّينار والدّولار وتزويدهم ببرنامج كاملٍ في نهج سلوكٍ ، والقيام بأفعالٍ يأباها الدّين الإسلامي ، وتأباها شريعته السّمحاء ، من أخل خلق حالةٍ من الرّعب والنكوصِ عن الدّين ، عند عامّة الشّعب ، فيشتمون الدّين ، ويلعنون ساعة ظهوره متذرعين بتصرفات هؤلاء الأنجاس الّذين هم قومٌ من الشّياطين في الأساس لا خلاقَ لهم ، وليسوا من البَشَرِ ، حتّىٰ ولو ظهروا بشكل ملائكةً يسبّحون الله . . !

انقطعت أخبار مريمِ ورسائلُها بشكلٍ نهائيٍّ ، فلم يعد سعيدٌ يسمع لها ركزاً ، وعاد يتجرّع خيبة حبّه من جديدٍ ، بعد أن لاح له قمرٌ غارقٌ بالفرح والسّعادة بعد ملاقاته « مريم » . .

وكلُّ ذلك ، ما كان ليقع لولا هؤلاء القوم المجوس ، أصحاب الرّاية السّوداء حتّى لو كتبوا عليها القرآن المُنزّل كلّه ، فهذا لن يقدمهم أو يؤخرهم في أعين ذوي الأخلاق والاعتدال شيئاً . . . وهنا أمام هذا السّعير الّذي استشاط منه سعيد غضباً وحَنَقاً ، تمادَى به الفكر في ساحات خياله الرّحب مستنطقاً لسانه بأجمل وأعظم ما قيل في التّنديد بالأنجاس من شعرٍ ، فكتب فيهم قصيدةً نثريّةً يذمُّهم ويمقتهم بقوّةٍ ، فاضحاً فيها مكنونات تكوينهم ، ولماذا هم هنا ؟ من أين أَتوا ؟ ولماذا يوغلون بغلوٍّ جائفٍ في تشويه سمعة الّدين الإسلاميّ الحنيف ، ضاربين بأخلاقه وقيمه الخالدة ـ حتّى في الحروب ـ عرضَ الحائط ، كانت القصيدة عبارةً عن رسالة شاعرٍ إلىٰ داعشٍ نشرها في إحدىٰ الصّحف الإلكترونيّة . . إنتقاماً وغيرةً لمريم ، قال فيها :

أنتم . . أيّها الأشرار

كالآلهة المحرَّفة الّتي تعبدونها

ما لكم في كتب السّماء من قرار . . !

قلوبكم أشدَّ قسوةً من الحجارة

لا تعرف الحبّ ولا العطاء

تدّعون أنكم صوت لله

الّذي يخضّر على الأرض . . !

ثمّ ترقصون على الدِّماء والأشلاء

وتزرعون في جبين الحقول والأنهار

القتل والدِّماء . . !

أنتم . . أيُّها الأوغاد . .

كفأرةٍ تجوب في البلاد

مع الصَّعاليك والأوغاد

وتشربون من شرايّين النّعوش

كأساً تخالونه من دِهاق

أنتم . . أيّها الأشرار

كمنافقي الجاهليّة الجهلاء

تتباركون من بول مسيلمة الكذّاب

وتتطّهرون بماء شهوةِ سجَاح[1]

---

(١) سجّاح . . كانت زوجة مسيلمة الكذّاب ، عرفت بشبقها بالرِّجال .

أنتم أيّها الأشرار

يُخيفكم من بلادنا . . حكايات النّسور

وأقاصيص الصّقور على المروج الخُضر

وفوق هامات الجبال

فعَهداً . . ثمّ عهداً . . على ربوعنا

إذا ما كُلِّل حزنها بالغار

أنْ تسومكم يومِ الوقيعةِ

بالصّارم البتّار . . !

كانَ الحزنُ يلّفُ نفس سعيدٍ مدّاً وجزراً . . لم تعد مريم نتواصل معه عبر رسائلها في هاتفها النّقال ، مضّت عليه عدة أيّام حتّى وصل عدُّها شهراً كاملاً ، وهو يقضي وقته في متابعة نشرات الأخبار ، ينتقل من ألمٍ إلى آخرٍ . . ! يكفيه ما ذاق من لوعة هذه الحرب وشرّها المستطير الّذي حرمه ـ كحال كثيرٍ من الناس ـ لذّة العيش ، وفرح الحياة . . ! فكان يبعد عن ذهنه الأفكار الّتي تجعله كافراً بإرادة القدر وتفويض أمره إلى الخالق . . ثمَّ يأتي مصير مريم المجهول ليزيده تبرّماً بهذه المقادير يقول في نفسه : آهٍ . . يا مريم . . أنت أين الآن ؟ كلّما لقيتك تغيبين عنّي ، وتأفلين بليلٍ غابت وغارت أنجمه بعيداً خلف الآفاق . . ! فما ذنبنا لنعاني الأمرين من قسوة الحياة . . ! نعم . . ما ذنبنا جميعاً لنعاني من قسوة الحياة الطّاحنة

لأحلامنا وآمالنا . . ! هكذا حال الإنسان دوماً يولد لا ذنب له فيعيش طفلاً صغيراً ، لا يعرف من مصائب الدّنيا شيئاً . . لكنْ حين يكبر يدخل في دوّامةٍ معها لا نهاية لها إلاّ الموت . . نعيش حياتنا مزيجاً من الشّقاء والحسرة . . . ويلي من هذا الطّريق الّذي أسلكه لأوّل مرّةٍ في حياتي . . ! كمْ أنت مسكينةٌ يا مريم . . !

وجد نفسه سعيدٌ متشائماً من تدابير القدر ، كثيباً . . يمتلىء فؤاده بالحزن الصّاخب ، إزاءَ واقعٍ يعيشه بشقاءٍ ومرارةٍ ، لا خيار له فيه بين الموت والحياة . . . متمنيّاً لو عاد جنيناً في بطن أمّه ، وخيّروه قبل ولادته بين الموت والحياة ، لاختار الموت بكلّ تأكيدٍ . . . هروباً ونجاةً من سجن الدّنيا الكبير المفتوح الّذي لا ينفذ منه الإنسان إلا بجهد خارقٍ . . !

بيدَ أنّ سعيداً كان يحسُّ في دخيلة نفسه بشيءٍ من الأمل يكبح عقله وفؤاده عن التّطواف حول هذه الأفكار الحارقة لكل بارقة سعادةٍ ، والّتي يعارض فيها القدر المكتوب في صحائف الغيب . . فهو إنسانٌ مؤمنٌ ، صادقٌ مع ربّه . . راضٍ بما يكتبه له في حياته . . ! فبعد يومين فقط من عزمه السّفر من أجلِ التّحسس عن خبرٍ يطمئنه عن مصير مريم . . فجأةً . . اهتزّ جوّاله وعلا رنينه . . نَظر . . وبَسَرَ ثمّ قال : رقمٌ غريبٌ عنّي . . لا أعرف مصدره ، أغلق الرّنين . . ولم يرد . . !

ولكن الرَّقم ذاته عاود الاتّصال به.. أدرك من فوره إدراك الحاذق اللَّبيب ، أنّ معاودة الإتّصال فيها تأكيدٌ على طلب الرّد لأمرٍ هامٍّ وجللٍ.. ! فردَّ ولم يتمهَّل.. : آلو.. من المتكلّم . ؟

ردَّ عليه صوتَ خشنٌ مع قحّةٍ عميقةٍ بكل هدوءٍ وذوقٍ ، أدرك عند سماعه أنّ المتكلّم رجلٌ طاعنٌ في السّن بلغ من العمر عتياً.. : هل أنت سعيد ؟..

ـ نعم.. أنا سعيد ، ماذا تريد أيّها العمُّ الجليل ؟.. لم يرد عليه المتحدِّث العجوز.. وإذ بصوت مريم يفجؤه ويطرق أسماعه ، مانحاً إيَّاها جرعةً من الفرح : سعيد.. أين أنت ؟... أنا مريم ؟.. لا أستطيع مجاراتك بالحديث الآن ؟! كوني أسيرةٌ في يدهم ؟.. ولكن اتصلْ بي على هذا الرَّقم ولا تيأس أو تبتئس إن لم أردّ عليك مباشرةً.. نحن هنا نتحيَّن الظّروف السّانحة الّتي تغيب فيها أعينهم عنّا.. كما أنّنا نترقب التقاط الشبّكة الّتي تغيب وتعود لبعض الوقت كلّ يوم.. !

انتهت المكالمة على وقع وجيب قلب سعيد الدّافق بخفقانه !.. بعد أن عادت إليه تباشير الفرح ، مطمئناً على سلامة مريم وخلّوها من أيّ مكروهٍ حتماً.. هناك من يساعدها ويقف إلى جانبها.. لا شكّ أنّه العجوز ذاته ربّما كان من ذوي النّفوذ والسّلطة عندهم ، ويتمتّع بخلقٍ حميدٍ ، وهو بمنأى عن تصرفاتهم وإجرامهم..

ويمكن أن يكون مُجبَراً على العمل معهم تحت وطأة التّهديد ، توقّف سعيد عند هذه المحطّة الّتي وضعته على مفترقِ طريقٍ ، يجب أن يحسب له حساباً في المستقبل ، وأن يكون متّأهباً لأيّ طارىءٍ يتعلّق بحياة مريم وسلامتها . . . !

وصلته على حين من هدوئه ، وسكون باله . . رسالةٌ أخرى من مريم . تشرحُ فيها تشرح فيها الظّروف الّتي تمّ أسرها فيها ، وتقلباتها من مكانٍ إلى آخرٍ معتقلةً سليبة الإرادة ، تروي فيها فظاعة وبشاعة إجرام الأنجاس الّذين يهيمون في كلّ وادٍ قاتلين معتدين ناهبين . . ! تصدر منهم رائحة كريهةٌ تشبه إلى حدٍّ كبيرٍ رائحة التّيوس والخنازير . . . ! تروي فتقول : لا أستطيع تصوير ما انتابني من خوفٍ وهلعٍ ، عندما سمعت جلبتهم في الطّريق بأسلحتهم المدججة بالدّبابات والمصفّحات والعربات الكبيرة ، يسيرون بها في موكب كبيرٍ ، يجوبون الطّرقات والشّوارع هاتفين لنصرة رايتهم السّوداء متوعّدين من يقف في وجههم أو يخونهم بالقتل والتّنكيل ، والعذاب والويل . . ! أزَحت ستار النّافذة قليلاً ، وأنا مُتخوّفةً أنْ يراني أحدهم . . كانوا يقفون على مسافةٍ قريبةٍ جدّاً من منزلنا ، رأيت مجموعةً من مقاتليهم يتقدّمون راجلين ، يرفع أحدهم رأساً دامياً فوق نصل سيفٍ كبيرٍ . . عرفت أنّه رأس كبير وجهاء المنطقة الّتي أقطنها . . حيث كان منزلي في إحدى الضّواحي القريبة من مدينة الرّقة ـ على أطرافها ـ .

كنت مليئةً بالرّعب والقلق ، ملكني اضطرابٌ عنيفٌ ، لا أستطيع أبداً أن أقرّر ما يجب فعله ؟ . . خاصّةً وأنا أسمع الصّراخ والصّخب في الشّارع أصبت بالرّجفة والارتعاد من منظرهم ، يروحون ويجيئون ، بطقطقة بنادقهم ، وصليل سيوفهم وحرابهم المسنونة ، وقرع نعالهم ، وبتصرفاتهم وشتائمهم النّاريّة على الخونة الكفّار . . ولا أعرف مَنَ يقصدون بها . . فهل نحن كفّارٌ وهم المؤمنون حقّاً ؟

بعد لحظاتٍ توّقفت أمام منزلنا شاحنةٌ صغيرةٌ ، بمحاذاة الرّصيف الملاصق لمنزلنا ، كان وقوفها قويّاً ملفتاً للأسماع ، مصدراً صوت أزيز العجلات من جراء شدّة ضغط السائق على المكبح (الفرام) . . كان في صندوقها الخلفي يقف ثلاثةً من علوجهم ، يطلقون من بنادقهم الرّصاص في الجوّ في كلّ اتّجاهٍ مهلّلين ومكبّرين ، من نبرة صوتهم عرفت أنهم غرباءُ قادمون من بعيدٍ لا أستطيع أن أصف دهشتي وهلعي ، وهم يرمون من الشّاحنة جثّة زوجي . مذبوحاً كالشّاة تنزف منها الدّماء بشدّةٍ . . ثمَّ ألقوا جثث بقيّة أفراد العائلة ، أبوه وأخواه . . وهم يصيحون بأعلىٰ أصواتهم هذا عقاب الكافرين الخائنين . . . الله أكبر . . الله أكبر . . !

واحدٌ منهم كان يصيح كالتّيس الجائع ، يهيب بالنّاس للتّكبير : . . . تكبير . . تكبير . . فأحسست حينها بالارتخاء

والإعياء.. ثمّ إغماء.. ولا أدري ما حصل بعدها.. ! لكنّني أفقت من إغمائي لأجد نفسي مع مجموعةٍ من النّساءِ الثكالى الحزينات ، في سردابٍ تحت الأرض يشرف عليه هذا العجوز الطّيب يعمل لديهم طبّاخاً ، وأوكلوا إليه أمر هذا السرّداب الّذي لا يحتجزون فيه إلاّ النّساء ، ويتألّف السّرداب من عدَّة غرفٍ ومطبخٍ كبير !..

قرأ سعيد هذه الرّسالة من مريم إليه ، غائصاً في أعماقِ كلماتها الّتي استشفَّ منها ما كان يتوقّعه في الماضي من خصّام السّعادة لحياته وهي تميدُ به نحو منحدرٍ سحيقٍ من الشّقاء والآلام ، فبالأمسِ القريب كان مصير مريم يميل نحو السّلامة والاستقرار.. أمّا اليوم فهي على وشك أن تقرع لها طبول الموت ، فاحتشدت كل مشاعر الأسى والحزن مرَّةً جديدةٍ في قلبه ، وعاد إلى وجومه السّابق منفصلاً عن كلّ ما يحيط به من حوله...

* * *

« حزنٌ في حلب ».. !

انتظر سعيد بلهفٍ وترقّبٍ شديدين ، مكالمةً أو رسالةً من مريم ، يصابر نفسه ، ويكابد شقاق السّعادة له.. مرّ شهرٌ.. شهران.. ثلاثة.. طوفانٌ من الحزن ينقله من عالمه إلىٰ عالم آخر لا يرىٰ فيه الشّمس إلاّ سوداء مقيتةً.. ويظهر بين الجميع بوجهٍ كئيبٍ ، مفجوعٍ بموت عزيزٍ عليه.. !

لا صوت ولا صورة ولا كلمة أو حرف يأتيه من مريم.. لا يستطيع سعيد إيقاف سرعة خفقات قلبه... لا يستطيع التّحكم بتفكيره المأخوذ المشغول ، مفكّراً بحلّ هذه العقدة الّتي هي أشبه بحلّ معضلّة رياضيّةٍ صعبة المنال.. على أيّ نافذةٍ يقف ؟.. أيَّ بابٍ سيقصد ؟.. في أيّ اتّجاهٍ يسير ؟.. لا يدري ، وكيف يدري.. والحرب تنتزع أجمل ما يجلب له السّعادة في حياته.. ! ؟

نَشَطَ عقله بعض الشيء . فكّر ملياً في طريقةٍ يلمس من خلالها مصير مريم... كان مبتغاه الأكبر أنْ يعلم أنها ما تزال على قيد الحياة ، أم حاق بها الموت ؟..

دخل سعيدٌ في صراعٍ مع نفسه ، استنتج من خلاله ، بعد تفكيرٍ

عميقٍ أنّ عليه اتّخاذ عامل الصَّبر بمِحضِ إرادته ، حتّى يصل إلى ضالته المنشودة ، ومعرفة مصير مريم بعد انقطاع أخبارها وهي أسيرة ؟! . . وسِيْءَ به الأمر عندما أخبرته أمُّه الّتي شاخت وهرمت ، أنَّ أهل مريم باعوا منزلهم ، وانتقلوا إلى منطقة في ضواحي المدينة للسّكن فيها ومن الصّعوبة بمكانٍ الإتّصال بهم ، لمعرفة خبرٍ عن حال مريم . . !

توالت الأيّام قليلاً . . وسعيدٌ يتظاهر بهدوء مصطنع كي يخفي القلق الهائل والذّعر المخيف اللّذين يضطرمان في حنايا صدره . . . وليخفّف عن نفسه وطأة الأسئلة ممَّن يحيطون به ، ولا تخصّهم قصة مريم من قريبٍ أو بعيدٍ شيئاً .

في أحد الأيّام تناهىٰ إلى سمعه ، أنّ بعض أقرباء زوجها الّذي قضىٰ نحبه إعداماً على يد الأنجاس ، يقطنون في مدينة حلب ، وهمْ يتواصلون مع أقرباءٍ لهم في الرّقة ، وربَّما لا يعلمون أنَّ مريم أسيرةٌ هناك ، فيجتهدون في معرفة مصيرها عن طريقِ واحد منهم ، وعادةً أبناء المنطقة لا يعدمون حيلةً في معرفة خبر من حضر أو غاب في منطقتهم ، حتّى لو كان في بطنِ الوحوشِ الضَّارية . . !

حلب ، مدينةٌ واسعةٌ وشاسعةٌ ، مكتّظةٌ بالسّكان ، ويجهل في أيّ منطقةٍ فيها يقيم أقرباء زوج مريم . . !

فكّر وتدبّر في الأمر ، تذكّر أن زوجة أخيه الّذي يكبره سنّاً ، هي

من مدينة حلب ، وأهلها يقْطنون في حيٍّ يقع وسط المدينة ، ولها أقرباءٌ كثيرون هناك . . منهم أصحاب نفوذٍ وسلطةٍ . . لكن . . كان يخشىٰ أشدّ ما يخشىٰ ، أن يكون أقرباء مريم يقطنون في المناطق السَّاخنة الخارجة عن سيطرة السّلطات الحكوميّة . . !

حدّث زوجة أخيه عن قصّة مريم ، مُستثيراً مكامن الحزن في في نفسها ، فلاقىٰ منها تعاطفاً كبيراً ، وأزمعت مساعدته ، وقالت له : وجدت من يساعدك حثيثاً للعثور على بغيتك هناك . . زوج ابنة خالتي « سحر » هو ضابطٌ برتبة عميدٍ ، ورجالُ الجيش والشّرطة لا يعجزهم معرفة سكن قريبٍ لمريم في ثنايا أحياء المدينة أو حتىٰ في أطرافها الشّاسعة ! . .

أُعجب سعيدٌ بعرضِ زوجةِ أخيه ، وأصرَّ عليها أن تكلّم ابنة خالتها « سحر » في الهاتف للتأكّد من موافقتها علىٰ المساعدة . . ففعلت ! . . وحصل ما يتمنّاه ويصبو إليه ، وأحَسَّ أنّ دفقةً من الأمل سرت في أرجاء نفسه ، فيما كان القلق يشيع الحذر في قلبه . .

تفاءل سعيدٌ خيراً ، وخفيفاً كان اليأس يتلاشىٰ في روعه كالأمواج الملاتشية علىٰ الشاطىء في جوّ الصّيف الرّاقد بحره . . !

قبل انطلاقه إلىٰ حلب بيومين هاتف السيدة : سحر أتش أوغلي ليعلمها بقدومه ، فربّما كانت العائلة غير جاهزةٍ لاستقبال الضّيوف . . فما أحبّ أن يفاجئهم بزيارته المرتقبة . . ولم يفته أن

يَسْتفسرَ عن موقع منزلهم في حلب. . . بعد يومين. . وصل سعيدٌ إلىٰ حلب ، أحسّ أنّ قلبه يخفق فرحاً لوصوله ، فكم عانىٰ أثناء الطّريق حتّى وصل إلىٰ حلب. . حواجزٌ. . ومتاريسٌ منصوبةٌ على جنباتها ، تأهّباً لأيّ هجومٍ مفاجىءٍ يباغت به جماعات العصابات المسلّحة الّذين أهلكوا الحرث والنّسل ، حتّى طرقات السّفر لم تسلم من غدرهم. . !

سعيدٌ الآن في حلب الشّهباء ، يمني النّفس العثور فيها علىٰ خبرٍ (ما) يكشف له عن مصير مريم. . .

رغم الحرب العشواء. . . وتهدّم بعض البيوتات والمحلاّت ، وتصدّع بعض الطُّرقات وخروجها عن الخدمة بفعل الدّمار الهائل الّذي لحق بالمدينة ، وجد فيها النّاس يواسون بعضهم بعضاً بما فعلته الحرب بهم ، وبمدينتهم الّتي ملأت الدّنيا بصناعاتها ومنتجاتها ، والتي هي الآن خاويةٌ على عروشها. . ! وانخفضت فيها وتيرة الحياة ، نصف سكّانها تقريباً هُجّروا من بيوتهم وأرزاقهم ، عندما بدأ سرطان المسلّحين يدبُّ في أوصالها. . فأغلب أحيائها وقُراها الشّماليّة تحت قبضتهم ، يسومون السّكان الّذين لم يجدو مفرًّا ـ سوء العذاب ، بيد أنّه ، وجد في نفسه وهو يمشي في بعض شوارعها وأسواقها إحساساً بالسّعادة الغامرة ناظراً إلى دكاكينها ، مصغياً لأصوات الباعة الذين ينادون لشراء ما عندهم ،

كان يمشي باتّجاه بيت العميد « علي » زوج السيدة سحر . والّذي شرحت له زوجته ما يريد سعيد ويبغي ، فأثنى على مساعدته ناوياً الاستجابة لمطلبه، ثمّ أخذ سعيد يسأل النّاس مُستفسراً عن المنزل الّذي يقصده ، فدلُّوه عليه واصفين له مكانه . . . مشى في اتّجاهه ولم يجد صعوبةً أن يقف على بابه قارعاً بهدوءٍ ولطفٍ . . . ! ولكن . . تناهى إلى سمعه صوت السّيدة « سحر » بالكاد يفسّره ليدرك مضمونه ! . بادره حدسه الذّكي بالخوف والحذر من قدومه في وقت غير رائقٍ ربّما لاستقباله من قِبَل مضيفيه رغم أنّ هناك ميقاتٌ مسبقٌ لميعاد الزّيارة . . وبينما هو في حيرةٍ من أمره ، بين الرّجوع أو قرع البَاب مرّةً أخرى . . سمع قَرقعةً من موصد الباب ، ففتحت له فتاةٌ في الثّامنةِ عشرةَ من عمرها ، عرف من زيّها أنّها خادمةٌ ! . . وعلى الفور بادرها سعيدٌ قائلاً : السّيدة سحر موجودة ؟ . . فأجابته بارتباكٍ مُتلعثماً كلامها : . . . نعم . . موجودة . . مَنْ الضّيف لأخبرها ؟ . .

ـ قولي لها : سعيد . . قريب ابنة خالتك، قدم من اللاّذقيّة !؟ . .

غابت الخادمة للحظاتٍ ثمّ عادت لتقول له : تفضّل . . . دخل وجلس في غرفة الاستقبال حسب ما أشارت عليه الخادمة ، فعاوده الشُّعور بالقلق والإرتباك عندما أدرك أنّ الحركة داخل المنزل غير طبيعيّةٍ ، ربّما كان هناك خطبٌ جللٌ ! . . أو أمرٌ طارىء يشغل أهل البيت عن ضيفهم . . فجأةً . . طرق مسامعه صوت السّيدة « سحر »

وهي تخاطب زوجها عبر الهاتف بصوتٍ يدوي داخل المنزل. . . كان صوتها مُتسرّعاً ينطوي على لهفةٍ وحزنٍ شديدين ، مع إجهاشٍ متقطّع بالبكاء ، حزّ في قلبه استغاثتها المُلحّة ، ووصيتها لزوجها الانتباه على نفسه. . !

وعلىٰ حين غمرةٍ من الصَّمت الّذي خيّم داخل المنزل ، فجأةً دخل مسلّماً عليه أحد أبناء السّيدة سحر ، كان شاباً في بداية العقد الثالث من عمره أنيق المظهر ، على وجهه وسامةٌ تفيض بهيبة الوقار. . كانت علامات الحزن باديةً على وجهه بوضوحٍ شديد !. . جلس على مقربةٍ من سعيدٍ قائلاً له : أهلاً وسهلاً بك. . لا تؤاخذنا. . ففهم سعيد أنّ توقّعه كان في مكانه ، وتمنّى لو اختار الرّجوع وفق ما راوده حدسه أثناء قرعه الباب !. . وبتودّدٍ وملاطفةٍ نَهَض سعيد واقفاً متأثّراً بحزنٍ تأسّفَ له من أجواء المنزل. . وكذلك من ملاحظته للحالة النفسيّة المضطّربة والمتوترة للسّيدة « سحر » وقال للشّابّ : أعتذر. . وكليّ أسفٌ لأنّني جئت في هذه السّاعة الّتي لم أكن أتوقّع فيها حدوث مكروهٍ بكم !. .

أجاب الشّابّ : نحن أولىٰ بالاعتذار. . وأنت ضيفنا !!. . لكنّ إصرارَ سعيدٍ على الانصراف جعل الشّابّ يرضخ لمطلبه. . فرافقه نحو الباب. . قام سعيد بمراسمِ الاعتذار مرّةً أخرىٰ. . فردّ عليه الشّابّ بالاعتذار طالباً منه العودة في المساء بإلحاحٍ شديدٍ .

أحسّ سعيد بالنّدم لأنّه غفل عن سؤال الشّابّ عن حال أبيه ، وشغلت فكره توسلاّت السّيدة « سحر » لزوجها ، وعزّز من ندمه على زيارته في هذه السّاعة الجائفة بأحداثها على عائلة السّيدة « سحر » ، وأثار فضوله وقدح لهيب التساؤل في ظنون عقله ، كلمات السّيدة « سحر » لزوجها : هل أنت جريحٌ يا عليّ ؟ . . فممّا لا شكَّ فيه أنّ العميد « عليّ » يخوض معركةً شرسةً ضدّ عُصبة المنافقين المناوئين الّذين استبدلوا ما هو خيرٌ لهم بما هو شرٌّ مستطيرٌ عليهم ! . .

سعيدٌ يمشي في الطّريق المؤدّي إلى وسط المدينة ، قاطعاً عهداً على نفسه بعدم العودة إلى اللاذقيّة قبل معرفة مصير العميد « علي أتش أوغلي » فربّما يعود عند المساء إلى المنزل سالماً من أيّ مكروهٍ ، فيطمئنّ قلب السّيدة « سحر » الّتي دخلت هي الأخرىٰ في جوٍّ عاصفٍ من الحزن والكآبة على ما بدا له . . !

قرّر المبيت في أحد الفنادق ، بعد أنْ هاتف زوجته وأولاده يعلمهم بذلك كون حاجته لم تقضَ بعد في حلب ، متذّرعاً بضيق الوقت ، وهيمنة التّعب والمشقّة عليه .

قضىٰ سعيد معظم نهاره ماشياً على قدميه ، يجوب شوارع حلب وطرقاتها علّه يصادف أحداً من أهالي الرّقة يعلم شيئاً عن أقرباء زوج مريم ، وكانت إشراقةٌ من الأمل ، ترسل شعاعها في قلبه ، فيقول

في نفسه : لقد بذلتُ الجهد والوقت . . وسخّرت العقل للوصول إلى غايتي المنشودة ، فلم يحالفني الحظّ هذه المرّة في لجوئي إلى مَنْ يساعدني ؟! . .

اعتبر سعيد اعتماده على نفسه في تولي قضيته بمثابةِ شهادةٍ عُظمىٰ له علىٰ إخلاصه ووفائه لمريم ، وحرصه على حياتها ، فبات يشعر أنّ الأقدار أوكلت إليه أمرها ، وأسندت إليه المسؤوليّة للتأكّد من سلامتها وعافيتها . . ولا يزال يبحث بين النّاس سائلاً هل يعرفون « آل النّواري » ، وما فتىء يبحث عن ضالّته المنشودة حتّى مالت الشّمس نحو الزّوال ، فخلد إلىٰ مكان نزله في أحد الفنادق للمبيت فيه هذه اللّيلة .

وفي صباح اليوم التّالي ، كان على أهبّة الاستعداد للإنطلاق من الفندق قاصداً زيارة شقيق زوجة أخيه ، وهو يعرف مكان دُكانه وسط المدينة ، فقد زاره أكثر من مرّة أثناء زيارته حلب في السّنوات الماضية ، فعلّه يزيح عن نفسه سحابة الصّمت المفعم بالغضب ، أو يسكّن توتر أعصابه من فشله بالعثور على شخص « من آل النّواري » . . هو في الحقيقة صادف بعض النّاس النازحين من الرّقّة يقيمون في حلب ، كلّهم أكدّ له عدم معرفته بأقرباء زوج مريم .

عندما وصل إلىٰ دكان شقيق زوجة أخيه ، عرض عليه الأمر دون إسهابٍ فوعده بمساعدته قدر المُستطاع باذلاً كلّ جهده لتحقيق هذه

الغاية المنشودة ولكن.. صُعق الرّجل لمّا أخبره سعيد ما صادفه البارحة في منزل ابنة خالته « سحر » !.. فهبّ من مكانه ، وعمد إلىٰ إغلاق دُكانه طالباً منه مرافقته إلى منزل السَّيدة « سحر » للإطمئنان علىٰ مصير زوجها ، فانطلق معه راغباً معرفة ما حدث للعميد « عليّ » البارحة ، ففضوله يدفعه إلىٰ مشاركة عائلته الحزن والهلع الّذي اعتاد عليه طوال حياته السَّابقة.. دائماً المحزونون تمدهم القدرة الإلهيّة بحبلٍ من الإنفعال الوجدانيّ يوحّد نظرتهم ومعاناتهم.. فتراهم يشاركون بعضهم بعضاً في وحدة الحزن والحال والمصير ، وهم يعيشون الحسرة الأليمة !.. وفي جوٍّ مفعمٍ بالحزن ، والشّكوك الّتي ما تأكّدت يقيناً في الكشف عن مصير ربِّ الأسرة ، جلس سعيد بصحبةِ « خالد » شقيق زوجة أخيه يراودان عقل السَّيدة « سحر » كي تحكيَ لهم ما حلَّ بزوجها ؟.. فمدَّت السَّيدة « سحر » يدها وقطفت منديلاً ورقيّاً ناعماً من عبوةٍ كانت إلىٰ جانبها ـ وما أكثر ما استهلكت منها ـ مسحت دموعها الّتي لم تتوقف لحظةً منذ صباح يوم أمسٍ ، عندما ودعها زوجها بحرارةٍ طالباً منها التَّصبُّر والدَّعاء.. ثمّ أولت وجهها إلى سعيدٍ بنظراتٍ ملؤها الاحترام والتَّرحيب والأسف ، لأنّ الظّروف الطارئة نقضت عزمها عن مساعدته ، وغربت نفسها في اتّجاه الحزن والكآبة.. ثمَّ قالت له ولخالد : زوجي قائدٌ للرحبة ٦٤١ التّابعة لإدارة المركبات ، تقع على مقربة من سجن حلب ومطلّةٍ على منطقة الكنديّ العامرة

بالمصانع والمعامل.. المخرّبون الغادرون تسلّلوا إلىٰ المنطقة تحت جنح الظّلام وحاصروها من كلّ مكان مع المصانع والمعامل المحيطة بها.. ! وليلة أول أمسٍ الفائت.. بينما كنّا جلوساً على مائدة العشاء ، ورد لزوجي اتّصالٌ هاتفيٌّ من أحدهم ـ لا ندري كيف حصلوا على رقمه ـ يعرض عليه الإنشقاق عن الدّولة ، وتسليم الرّحبة لهم مع أفرادها وضباطها.. مقابل مبلغٍ ماليٍّ كبيراً يمكّنه من العيش الرّغيد والثّري مع عائلته ، وتأمين هروبٍ آمنٍ له خارج البلاد لكنّ زوجي رفضَ عرضهم ، وتوّعدهم بالمقاومة حتّى آخر قطرةِ دمٍ.. كانَ حريصاً علىٰ سلامة كلّ الضّباط والجنود في الرّحبة.. ! لم يكملْ عشاءه بعد ، سرعان ما لبس بزّته العسكريّة ، وانطلق سراعاً قاصداً الرّحبة للدّفاع عنها بعد أنْ هاتف جميع الضّباط للتواجد هناك ليلتها لم أنمْ طوال اللّيل فالخوف بدّدَ النّعاس عن جفنيّ.. كنت حينها أهاتفه بين الفترة والأخرىٰ ، فيؤكّد لي أنّ الأمور هادئةً ، والجميع مستنفرون ينتظرون ساعة الصّفر للدّفاع عن الرّحبة والتّصدي لهجوم الأعداء المحيطين بهم من كلّ مكانٍ.. وبعد أن انقضت ساعات الصّباح الأولىٰ ، هاتفني ليخبرني عن بدء المعركة ، وأنّ الأوغاد قاموا باحتلال المعامل والمصانع المحيطة بالرّحبة وأضرموا النيران فيها ، وألسنة اللّهيب تتصاعد في السّماء ناشرةً الدّخان الأسود الّذي حجب عنهم الرّؤيا من مسافاتٍ قريبةٍ ، وهو متأهبٌ للقتال في مقدمة جنوده وضباطه يقودُ الصّف الأوّل من

الجنود والضّباط ، وما زال يوصيني بالصّبر وعدم البكاء أو النّحيب إذا رزقه الله الشّهادة . . . بعد انتهاء المكالمة معه . . مرّت لحظاتٌ . . ثمّ هاتفني مرّةً أخرى ليخبرني أنّ المعركة بدأت ، والجنود معه يقاتلون باستبسالٍ عظيمٍ . . وما فتىء يوصيني بالصبّر والتوكّل على الله . . كان صوته يتقطّع ، يغيب قليلاً ثمّ يعود فأسمع صوته ـ لأنه ترك جوّاله غير مقفلٍ ـ وهو يوجه الجنود في ساحة المعركة يحرضهم على القتال وعدم الخوف أو الاستكانة إلى مطلب الأوغاد بالاستسلام عبر مكبرات الصّوت . . ولكن فجأةً سمعت صوته يتأوّه وينادي على أحد الجنود ليساعده . . كنتُ بالكاد أسمعه . . ثمّ انقطع الإرسال . . ولا أعلم مصيره حتّى السّاعة ، وما زلت أتّصل به وجوالّه مقفل ، وكذلك الأمر مع جميع زوجات الضّباط الّذين معه ! . . ولكن بلغني أنّ إحدىٰ المحطّات الإذاعيّة الّتي يبثّها المسلّحون ، أذاعت خبراً عن صدور حكم الإعدام بحقّه لأنّه رفض عرضهم قبل المواجهة بساعاتٍ ، وقاومهم مع جنوده وضبّاطه ببسالةٍ منقطعة النّظير . . والأمور ما تزال مجهولة رغم انبعاث إشاعاتٍ من هنا وهناك تؤكّد أنّ المسلحين اقتحموا الرّحبة وتمكّنوا من احتلالها وأشعلوا فيها النّيران . . !

استحثّ سعيدٌ في زوايا عقله كلمات المواساة ، وعبارات الإحساس الجامح نحو مشاركتها حزنها ، وألقاها على أسماع « سحر » كالغيث الّذي يصيب أرضاً قاحلةً من السّعادة والطمأنينة . . !

وفي طريق عودته من حلب إلى اللاذقية ، تأمّل جلياً في حاله كيف أتىٰ إلىٰ حلب وكيف عاد يجرّ أذيال الخيبة ، خالي الوفاض عن أيّ فكرّةٍ تطمئنه عن مصير مريم أو إحاطةٍ بأحد أقرباء زوجها . . فضلاً عن تحمّل ذاكرة قلبه مزيداً من الآلام والأحزان إشفاقاً وعطفاً على حال السّيدة « سحر » وما حلَّ بحياة زوجها من مصيرٍ مجهولٍ . . !

ووجم مفكّراً . . أنَّ الخوض في تجلّيات الحزن الّذي لاحظه علىٰ السّيدة « سحر » وأبنائها ، زوده بتجارب مكثّفة بالأنين والشّكوىٰ ، مرّ بها هو أساساً حتّى صارت عنده ذائقةٌ موسوعيّةٌ شاملةٌ ، فهو يستطيع أن يكتب عنها أسفاراً طوالاً ، ثمّ عاد ينقش علىٰ سمعه محدّثاً نفسه بالمثل القائل :

الّذي يرىٰ مصيبة غيره ، تهون عليه مصيبته . . !

طوىٰ سعيدٌ صفحات عقله متوخياً الهدوء لقلبه وباله بعد هذه المشقّة الّتي قضاها في حلب ، ولكنَّ نفسه لم يخبُ في ردُهاتها بصيصُ الأمل الّذي سيمكنّه يوماً من معرفة مصير مريم . .

ثمّ أكدّ على نفسه البقاء علىٰ اتّصالٍ بالسّيدة « سحر » لمعرفة أيّ مرفىءٍ سترسو فيه سفن حزنها ، وهي تتحسّس عن مصير زوجها في ظلماتٍ ثلاثٍ ظلمةِ قلبها ، وظلمة الحرب ، وظلمة الغياب المجهول .

« ويستمّر الألم »

ينزلق القمر بين غيوم ربيعه المتفتّح بالأمل.. ويضيء من حينٍ إلى حينٍ السُّهب الواسع الاخضرار في فيحاء نفسه.. فيما لهيب النّيران في جنوب قلبه تحبو خافتةً في بياض ضوء خياله ، فتبرز للتوّ أشباح الأنين ومن فوقها رايات الحزن ، لتذوب من جديدٍ في عذراء ليل صَبره واصطباره ، ما إن يتوارىٰ هلال الأمل وراء تلك الغيوم ، فيبدو الرَّبيع المتفتّح خريفاً عاصفاً برائحة الموت... !

كأنْ يداً سحريَّةً غير مرئيّةٍ توجّج بين مرّة وأخرىٰ لهب نيران الحزن بسُطوع يغشىٰ القلوب ، ويقرّح الأبصار.. !

ما كاد سعيدٌ يعود من حلب مُتأَججاً قلبه بأحزانٍ مؤلمة.. وما أوشك أن ينسىٰ بعضاً من هذا الحزن ، غارقاً في مشكلات العيش وهمومه ، حتّى تقرّح قلبه بآلامٍ جديدةٍ... تباً لك أيُّها الموت ! تباً لك أيّتها الحرب الرعناء.. !

فكم أخذتِ من أرواح الأبرياء ، وطوّحتِ بهم في براثن الإجرام قطعاً وأشلاءً.. علىٰ أيدي شرذمةٍ قليلةٍ من سفلة الأرض ، وأنذال البشر ، الّذبح.. وسفك الدِّماء ، والتّمثيل بجثث القتلىٰ غايةٌ

عندهم يؤجرون عليها بالدِّرهم والدّينار والدّولار.. نشراً للرعب والخراب على أرضٍ استقَت بدماء أبريائها ، وأنبتت حزناً يعتصر الآلام والدُّموع اعتصار المزن لماء السَّماء.. !

فقد كان من عادته بعيد الظّهر ، أنْ يتخذ له ساعةً من راحة البال ، وهدوء الأعصاب ، جالساً في مقهىٰ شعبيٍّ يقع علىٰ جانب أحد الأحياء غير المكتظّة بالسّكان ، ويكاد ينعدم حولها البناء لمسافةٍ ليست قليلةً ، يركن فيها مشتمّاً رائحة أشجار الكينا والحور ، والزرنزخت ـ كما يتلفظ بها العوام ـ محيطةٌ بالمكان ، يتجلّىٰ اختلاؤه بنفسه في هذا المقهىٰ بإنشراح الصّدر ، وبإفراغ ما ران علىٰ القلب من لوثات الهموم..

ولمَّا توقفت عجلة قدميه أمام باب المقهىٰ ، وجده مقفلاً على غير العادة.. فقد ألف منذ عدَّة سنواتٍ الجلوس فيه في مثل هذا الوقت كلَّ يومٍ...

يا ستّار.. ! ؟ أقصى به هول الموت بعيداً.. فلم يعد مدركاً لما يجري حوله ، حيث وقعت عيناه على ورقة نعيٍ معلقَّةً علىٰ باب المقهىٰ تنعي تسعة شهداء من الأبرياء المدنيين ، جميعهم من عائلة واحدةٍ (آل مريم) من قرية الحنبوشيّة الواقعة في ريف اللاَّذقيّة الشّمالي على مقربةٍ من إحدى المناطق السّاخنة الّتي تعجّ بعلوج العصابات المسلّحة ، وشرعت ناظراه بالإملاء على عقله أسماء

هؤلاء الشهداء ، منهم إخوة وإخوات وأبناء عمومة وزوجاتهم وبعض أولادهم الصّغار الّذين لم يبلغوا الحلم بعد ، إضافةٍ إلىٰ والد صديقه « رامي مريم » أيمن رفعت مريم ، وهيب شعبان مريم ، رفعت مسعود مريم ، ياسر شعبان مريم ، عادل وهيب مريم ، وائل وهيب مريم ، إبراهيم سلامة مريم ، حمزة سلوم مريم ، طاهر سلامة مريم لميا محرز هرياي ، وسام علي طريبوش ، الطفلة مرح فياض مريم ، الطفلة حلا فياض مريم . . !

لأوَّل مرَّة في حياته كلّها ، يقرأ سعيد نعياً لتسعة أشخاصٍ دفعةً واحدةً ، ماتوا جميعاً بفعل موتٍ واحدٍ ، الإعدام ذبحاً بالسّيوف والحراب المسنونة . . ! سمع سعيد بإنصاتٍ ووجوم إلىٰ صديقهِ رامي وهو يقص تفاصيل هذه المجزرة الجماعية التي وقعت على يدِ العصابات الإجراميَّة المسلَّحة الّتي تسعىٰ إلى نشر الإرهاب والذّعر في نفوس الأبرياء المدنيين ، يقول رامي : اجتاحوا قريتنا كالجراد الهائم فوق عروق السّنابل الّتي تحمل الخير للنَّاس ، فقطعوا جذورها ورموها أشلاءً للطيور الجارحة ، والوحوش المفترسةِ . . دخلوا بيتنا أولاً وساقوا والدي وإخوتي ، ثم ساقوا البقيَّة وجمعوهم في صعيدٍ واحدٍ علىٰ طرف ساقيةٍ تجري فيها المياه العذبة تسقي الأرض ، وتروي أشجارها ونباتاتها ، فذبحوهم جميعاً ذبحَ النّعاج من غير شفقة أو رحمة مثّلوا في أجسادهم تقطيعاً وتشويهاً وخاصّةً الطفلتين البريئتين . . ! وساقوا بقيّة من تبقىٰ من سكان القرية أسرىٰ

إلى مكانٍ بعيدٍ ومجهولٍ ومنهم أمي وشقيقتي وزوجها وولديها . . !

روىٰ رامي هذه الحادثة بحرقةِ قلبٍ ، وتنهدات حزنٍ تبث الكآبة والهلع في خفايا النّفس . . فكان يختزن حزنه ، ويحبس دمعه في سدِّ مقلتيه . . لكن لم يتمالك نفسه فانفجر بالبكاء . . . وقال :

لم أحزن على موت والدي وإخوتي وأقربائي كلّهم بقدر حزني على الطفلتين البريئتين . . فكيف طاوعتهم أنفسهم أن يقتلوا طفلاً وإمرأةً وشيخاً طاعناً في السِّن ؟! . .

ردَّ عليه سعيد مواسياً : ألم تعلم يا صديقي ، أنّ وحوش الغابةِ لا تفرّق بين طفلٍ وامرأةٍ وكهلٍ طاعنٍ في السِّن ! . . يزعمون أنّهم مسلمون ، والإسلام بتعاليمهِ الرّشيدة ، وأخلاقه الإنسانيّة النبيلة بريءٌ منهم إلى يوم الدّين . . ! ؟ كأنّهم لم يقرؤوا ولم تقع أعينهم علىٰ تلك الوصايا الخالدة الّتي كان يوصي بها خلفاء الإسلام وولاةُ أمره في جميع الأماكن والأصقاع . . . عندما يسيّرون جيوشهم للقتال والحرب ، يقفون على رؤوس الأشهاد وأمام الجنود والقوّاد ويتلون علىٰ أسماعهم هذه الوصيّة الخالدة : « لا تخونوا ، ولا تغلّوا ، وتغـدروا ، ولا تمثلـوا ، ولا تقتلـوا طفـلاً ، ولا شيخـاً كبيـراً ، ولا امرأةً ، ولا تعقروا نخلاً ، ولا تقطعوا شجرةً مثمرةً ولا تذبحوا شاةً ، ولا بقرةً ، ولا بعيراً إلاّ لمأكلة » . .

قال رامي : وعمدوا إلى الحقول والبساتين المحيطة بالبيوت ،

فأحرقوا ما فيها من أشجار ، وأضرموا النيران . . ولم يتركوا إنْساً ولا شجراً ولا حجراً مشيّداً إلاّ عبثوا فيه الدّمار والخراب والحرق .

تذكّر سعيدٌ من فوره ، مريم ، متسائلاً في نفسه ، ماذا عسى أولئك المجرمون فاعلون بها الآن إن كانت على قيد الحياة . . فهم لن يوفروا جهداً بقتلها . . أو على الأقل لن يمتنعوا عن إيذائها . . هم أتوا لهذه الغاية ، ولا يُطمع منهم أمنٌ أو سلامٌ . . ؟!

أمام هذا الحزن الملائكي الّذي استحكمت عقدته في نفس « رامي » أدرك سعيد أن الحزن عاد قضيته المركزيّة الكبرى التي تمدّ جسورها في كل اتّجاه وصوب . . . كانت مريم أولاً ، ثمّ سحرُ ، واليوم رامي ، وغداً من سيقف فوق سطح هذه الجسور ؟! جسورُ الحزن الّتي تبتلع السّعادة ابتلاعاً . . ؟!

وجاء الغَدَ مباشرةً . . لينتقل إلى جديدٍ من الحُزن الكئيب ، فملك الموت لم يطوِ جناحيه بعد ، فطاحون الحرب ما زالت تدور رَحاها حاصدةً الأرواح في مرحلةٍ من الزّمن العصيبَ ، لم يعرف التّاريخ الحديث أشدّ منها طغياناً وظلماً وقتلاً وإجراماً ، وتشويهاً للدّين ، وتلطخّاً للقيم والمبادىء الإنسانية ، ليس صعباً علينا أن نتخيّل أيّ نوعٍ من الأشخاص هو هذا الرّجل سعيد الّذي ترعرع شَابّاً في أحضان الحزن ، وعاش محاطاً بمظاهر الكآبة والأنين والشّكوى . . فها هو بحدسه الذكي ، وإلهامه المرهف الإحساس

يتوقّع ساعة خروجه صباحاً من المنزل . . أنّ ساعات نهاره لن ترحل بضوء شمسها عنه ، إلاّ مخلّفةً وراءها مشاعرَ جديدةً من الأسىٰ والكآبة ، وما كاد يمشي محدّداً مساره نحو السّاحة الرئيسّية في المدينة متوشّحاً بالأسف والحزن ، لكثرة ، ما تقع عيناه علىٰ أوراق نعي الشهداء المعلّقة علىٰ الجدران على جانبيّ الطّريق ، فلا يخلو كلّ نهارٍ تنبلج شمسه من نعواتٍ جديدةٍ تستأثر باهتمام النّاس وفضولهم . . هذا ابن مَنْ ؟ . . هذا أعرفه كان صديقي . . يا حرام . . وأسفاه علىٰ شبابه . . صبّر الله أهله . . !

كم كانت الصّاعقة شديدة الدّوي في كيان سعيدٍ وعقله ، عندما لاحق رأت ناظره في إحدىٰ النّعوات المعلّقة صورة صديق حميم من أصدقائه ، ليفتح الحزن شرانقه في نفسه مجدّداً . . . طبقاً لما وقع في إلهامه بداية الصّباح . .

إنّه صديقه الّذي كان بالأمس القريب يسامره جلوساً معه في بهو نادي الضّباط . . خانه ظنّه في البداية ، ولكنّه اقترب من الحائط ، وتسمّر وجهه في النعّوة جيداً بحملقة مرهفة . . اللّواء . . أمين شكوحي » ! . . يا الله . . كما أنت جائرةٌ أيّتها الحياة ، لا يرحل عنك إلاّ الطّيبون المخلصون ، عرف سعيدٌ أنّ صديقه قضىٰ نحبه على يد علوج الإجرام ، ومضىٰ في سكّة الخالدين مع اثنين من مرافقيه . . الأوغاد نصبوا له كميناً وهو في طريقه إلىٰ قريته للإطمئنان

على أهله وأقربائه.. كما عرف فيما بعد ، بعد مقتل مرافقيه ، أنه قاوم باسلاً بطولةً ودفاعاً عن نفسه حتّى نفذت جعبة ذخائرة فكان لا مناص من الأسر أو الموت.. فاختار الثّانية وسلك طريق الشّهادة حثيثاً بشجاعةٍ نادرةٍ.. !

ولمّا قام بواجب العزاء لذويه ، دنا منه الابن الأكبر لصديقه الشّهيد قائلاً له : كمْ كان والدي يحبّك يا أستاذ سعيد ، ويُسَرّ لملاقاتك كلّما حضر في إجازةٍ.. كان يذكر دائماً حديثك الشّيق معه ، وأنّك صديقٌ رائعٌ وفيٌّ لأصدقائك.. !

وعلى ذكر الوفاء.. كان هذا الخلق ناهضاً في أخلاق سعيد.. فوجد من الضّرورة ذوقاً وتعاطفاً ، الاتّصال بالسّيدة « سحر » للإطمئنان على زوجها الّذي كان مجهول المصير وقت تواجده عندهم زائراً في حلب . فأبرق لها اتّصالاً من هاتفه الجوّال ، ردّت عليه والحزن يعض كبدها ونفسها تذهب حسراتٍ ، قالت له : زوجي « عليّ » مضى في سكّة الخالدين.. ثمّ بدأت تسرد على سمعه تفاصيل موته كما علمتها منذ أيّامٍ قليلةٍ : لقد قاوم هو وضباطه حتّى نالوا الشهادة ، مات جميع من كان في الرّحبة ٦٤١ أفراداً وضباطاً ، وقام الأوغاد بحرق جثامينهم ، والتمثّيل بجثّةِ بعضهم.. لقد ذهبت إلى المكان ، واستطلعت الأخبار ، وسمعت إلى شهادة شهود عيانٍ من أحد عمّال المعامل القريبة من الرّحبة عن بسالة زوجي

ورفاقه ، قاوموا . . ولم يستسلموا ، وعندما نفذت ذخيرتهم لم يكن لهم خيارٌ إلاّ الموت والشّهادة ، بدأت تتلو عليه أسماء الضّباط الّذين قضوا نحبهم مع زوجها ، وأصبحوا مثلاً أعلىٰ في التّفاني دفاعاً عن أرض الوطن وشرفهم العسكريّ : العميد علي اتش أوغلي قائد الرّحبة ، العقيد رمضان إدريس ، العقيد أحمد درويش العاشور ، العقيد عبد الرحمن قاظان ، العقيد ريّان الأحمد ، المقدم طلال محمد ، الرائد حارث غانم ، الرائد إبراهيم رزوق ، المساعد عيد ديب ، المساعد وسام خضور ، المساعد عمار باكير . . .

هؤلاء الكوكبة من الضُّباط ، هم في الحقيقة لم يقدّموا لأنفسهم ولا لذويهم وسام الشّهادة فقط ، وإنّما قدموا للأجيال الآتيّة سبل الأمن والأمان ، وطريق النّصر أو الشّهادة بأبهى معانيه ، وأجمل صوره بكلّ قطرة دمٍ جادوا بها رخيصةً من أجل أن يبقىٰ تراب وطنهم سالماً من تلويث المجرمين السّفاحين ، ولم يتحمّلوا صابرين محتسبين الموت وحده ، وإنما هول الموت بكلّ ما رسمه لهم الأنجاس الّذين أشاعوا طُرقاً مسمومةً تلّوث البصر ببشاعتها قبل أن تدمي القلب والوجدان . . !

فمثلاً الرائد حارث غانم كم عانىٰ من وحشيّة هؤلاء الجزّارين قبل موته ، حيث اقتلعت عيناه قبل ذبحه ، وكذلك ـ كما أثبت

تصوير فيديو من ساحة المعركة ـ أنّ العقيد أحمد العاشور ، عذّبوه بوحشيّة تفوق وحَشيّة التّتار والمغول الّتي قرأنا عنها في التّاريخ ، المواقف المروّعة ، والحوادث الدّامية . . ثمّ قاموا بذبحه . . ! وهم يهلّلون ويكبرون متجاوزين كلّ الشرائع والأديان الّتي توصي بمعاملة الأسير . . أسير الحرب خاصّةً ، خيراً ويجب أنْ يعامل وفق اللوائح المنصوص عليه دولياً في مبادىء حقوق الإنسان العالميّة .

غدا سعيدٌ مقتنعٌ تماماً أنّ هذه الجرائم البشعة ما كان ليعرفها المجتمع العربيّ المتمسّك بمبادىء العروبة والإسلام إلاّ بعد الغزو الأمريكي للعراق وإشاعته الرّعب والدّمار وهدر حقوق الإنسان في الحرب كما أثبتت الأفلام الوثائقيّة المصوّرة الّتي بثتها أكبر القنوات الفضائية الإخباريّة في العالم اليوم . .

فالأمريكان سَنّوا سُنَّةً بشعةً في القتل الدّموي ، والمجازر الجماعيّة الّتي ارتكبوها بحقّ المدنيّين العُزل ، وهم الّذين يتبجّحون بحقوق الإنسان ، عادَ سعيد يسأل نفسه مرَّةً أخرىٰ . . ما ذنب مريم ، لتقع في أيديهم أسيرةً . . !

وبعد تلك السّياحة والتّطواف الّتي قضاها سعيدٌ في بحر الأحزان الّذي لا تهدأ أمواجه عن قذف مخلفّاتها على شواطىء الحياة . . قلقٌ . . رعبٌ . . كآبة ، المهمّ أنَّ نعرف مخرجات هذه العقدة التي لفّتها على حياتنا بإحكامٍ منقطعِ النّظير قوىٰ الهيمنة الاستعماريّة ،

وصدروا لنا ما يسمّىٰ بالرّبيع العربيّ ، أو الثّورة لأجل الحريّة والدّيمقراطيّة والعدالة الاجتماعيّة ، والمساواة في الحقوق ، وفي البلاد الّتي نجح فيها هذا الرّبيع كاليمن وتونس ومصر بشكلٍ سلميٍّ في البداية علىٰ حدٍّ زعمهم . . لمْ تمضِ هذه البلدان في طريق يصل إلىٰ هذه الحقوق ، والعناوين البّراقّة ، بل علىٰ العكس تراجعت بشكلٍ ملفتٍ للنّظر علىٰ هٰذا الصّعيد . . !

فكّر سعيد ملياً في هذه الأفكار ، وقلبّها في رأسه في لحظاتٍ دار فيها عقله الوّهاج المتفتّح ، محدّداً عن يقينٍ لا يراوده شكٌّ مُجملَ مخرجات العقدة المتشابكة بخيوطها ، حيث عقدت بكيدٍ لئيمٍ وحقودٍ للغاية فلم تخلّف لنا هذه الحرب إلا عقدة النّكوص والإرتداد عن قيم عروبتنا وعقيدتنا ، فعاد المواطن العربيّ يتنكّر عن عمدٍ أنّه عربيٌّ أو مسلمٌ بناءً على حالة الرّعب والكآبة الّتي نشرها الأدعياء من الجماعات المسلّحة جاهزة التّعليب والإنتاج . . . يقتلون باسم الدّين والحريّة ، تنفيذاً لأهدافٍ مرسومةٍ مسبقاً ، أملتها عليهم جهاتٌ أجنبيّة وإقليميّة .

بيد أنّ سعيداً ، كان يعتقد يقيناً أنّ حكومة بلاده تجاوزت المحنة وحلّت عقدة المؤامرة بسياسةٍ رصينةٍ ، لم تعصف ، ولم تملّ ! . . وتعمل جاهدةً على إعادة التّوازن إلى الحياة بشكلها الطّبيعيّ . . وهي قادرةٌ على ذلك . . ولكنّ الفرح والسعادة ، والانفراج بالعيش ،

تبقىٰ كلّها مطالبُ يسعىٰ إليها المواطن فلا يجدها إلا شحيحاً ! . .

أحسَّ سعيد بالتّعب والإعياء الفكريّ والعقليّ ، وهو ينبش في ذاكرته صوراً ومشاهدَ ومواقفَ راسيةً في خياله ، يحوّلها إلىٰ أفكارٍ مبسوطةٍ على أرضيّة عقله الّذي يدركها واقعاً . . ؟

أمّا الآن ، فصار لزاماً عليه أن يتجّه بذاكرته شمالاً . . ومن بين ثنايا فكره شعّت خاطرةٌ تتعلّق بمريم . . وهي رقم الرّجل العجوز الّذي تحدّثت منه مريم ذات وقتٍ . . . ما زال يحتفظ به في ذاكرة جوّاله . . رغم اليأس من معاودة الاتصال المتكرّر سابقاً بلا طائلٍ أو نتيجة مرجوّة . . !

فليجرب هذه المرّة ، فعسىٰ ولعلّ يأتيه منه بارقٌ من الرّنين ، يكنسُ عن فؤاده ، غبار اليأس الطّويل الذي يستغرق فترة الاتصال من غير جدوىٰ ، وبلهفةٍ غانيةٍ تتراقص أنامله علىٰ أزرار الجوّال ، ضرب الرّقم فما عاد يصدّق سماع رنينه ، فهو داخل الخدمة ويرنّ طويلاً . . لكن ما من يدشّن شريط المكالمة بعد انقطاع استغرق أكثر من سنتين أو ثلاثة . . علىٰ الأقل عاد الأمل يُنير فؤاده . . !

* * *

مريم.. وداعاً ؟

بدأت الأفكار المتورِّدة ، تأخذ سعيداً يميناً ويساراً ، مع تأهب كيانه كلَّه ، اسْتنفارٌ عامٌّ في جميع أحاسيسه ومشاعره وأفكاره ، وبدأ الإحساس الجميل يحطّ به على عتبات العالم الماورائي ، طبقاًلما يحسّه العاشق الولهان من مشاعر مرهفة قبل بدء اللِّقاء كلاماً وسمعاً فقط مع مريم الّذي ينتظر منها صوت ضحكةٍ مُشعَّةٍ بالنّور ، نضّاخةٍ بالعطر ، تعيده إلى شاطىء السّعادة الآمنة .

تمتم في نفسه : هل معقولٌ أنْ أتحدّث إلى مريم اليوم . . ؟ حَتْماً إنّ الرَّجل العجوز يعرف رقمي . . . وسوف يقول لها : إنّ سعيداً يتصّل . . ! رُبّما كانت كانت بعيدةً عنه . . . أو ليس هناك فرصةٌ سانحةٌ للرّد الآن ؟! . .

عاود الإتّصال مرّةً بعد مرّةٍ . . ولا من مجيبٍ لاتّصاله ، علماً أنَّ الرَّنينَ سليمٌ معافىً من أيّ تَقَطُّعٍ للشّبكة . . !

مرّت عدَّة ساعاتٍ ـ حتّى أوشك النّهار على نهايته ـ وسعيد لم يشحّ اهتمامه عن معاودة الاتّصال . . ! حتّى فرغت طاقّة البطاريّة الجوالّة من الشّحن تماماً . . ! وانطفأ الجوال في يده مستغيثاً طالباً

الرَّحمة بإعادة شحنه وتأهيله للعمل مرّة أخرى . . ! فوصلة بالشّاحن الكهربائيّ . . !

في هذه الأثناء كانت زوجته ، تراه منشغلاً تتلّهف نفسه تحت وقع الحذّر والتّرقب ، فسألته قائلةً : كأنّك تنتظر ردّاً هامًّا من أحدهم . . أليس كذلك . . ؟

ردّ عليها بطيئاً كارهاً لسؤالها : بلىٰ . . ! ولم تنبسْ شفتاه بكلمة واحدةٍ بعدها . ! فتركته زوجته وشأنه يفعل ما يشاء ، فهي لم تعد مهتّمّةً بالأمور الّتي تثير الخلاف أو تبعث النّكد داخل أجواء المنزل ، خاصّةً وأنّها اعتادت أنْ تراه بهذه الصورة ، وبهذا الاستغراق منشغلاً أو مفكراً بأمرٍ ما . . !

يمّم سعيد وجهه عند المساء ، قاصداً منزل أهله ، طلباً للأجواء الهادئة بعيداً عن منزله . . . كانت والدته تقيم في المنزل مع شقيقته سعاد ، وأخوه طارقٌ يؤدي الخدمة العسكرية في مدينة حمص ، أما أبوه . . فتوفي منذ عدّة سنواتٍ تاركاً له إرثاً من الوصايا والنصائح الّتي استقرت في وجدانه الحيّ وما زال يذكر وصيّته الذّهبيّة إليه قبل موته : يا بني . . إذا حزبك أمرٌ أو ضاقت بك الحياة ، ففرّج عن نفسك بالسّفر إلى دمشق ، وأقمْ فيها ما اسْتطعت ، ففيها من الأجواء السّعيدة ما يجلو الصدأ عن القلوب ، ويأتي بالفرج بعد الشّدة . . كما كنت أفعل في شبابي . . ؟

وفور وصوله إلى المنزل أهله ، جلس في غرفة الضّيوف ، منزوياً مع نفسه لإتصالٍ هامٍّ يريد أن يجريه ، بدأ الإتّصال . . مرّةً . . مرّتين . . وفي الثّالثة فُتح الخطُّ . . وهدأ الرّنين . . ! ولكنْ . . ما من صوتٍ يردّ عليه . . فبادر إلىٰ إسماع المتّصل إليه صوته قائلاً : آلو . . . آلو ألست العمّ الطّيب ، الّذي يعرف مكان مريم . . ؟

سمع صوت العجوز يتنحنح استعداداً للجواب . . وللحظةٍ قصيرةٍ جداً ، كان كلام العجوز يصل إلى أسماعه وئيداً وئيداً . . ! كعادة العجائز عندما يتحدّثون . . أهلاً وسهلاً ، أنت سعيد أليس كذلك ؟ . .

ـ نعم ، أنا سعيد ، ما هي أخبار مريم ؟ . .

صمت العجوز كأنّه أُوقع في فمه حجرٌ . . وبدا تلعثمه يصل مُتَقَطّعاً إلىٰ سمع سعيد . . . كأنّه يُخفي سرّاً لا يريد أن يطلعه عليه . . ما . . . ذا . . ما . . ذا . . مريم ؟! . .

لكنّ العجوز ، سرعان ما تهرّب من الإجابة قائلاً :

يا ولدي . . . سأحكي لك قصّتي مع سعاد من بدايتها إلى نهايتها . . ! أنا رجلٌ أملك مطعماً على أطراف مدينة الرَّقّة ممّا يلي مدخلها ، وليس لي إلاّ ابنٌ وحيدٌ في التّاسعة عشرة من عمره ، يساعدني في عملي ، كنت أرىٰ الدّنيا ضاحكةً مستبشرةً من خلاله . . . وعندما جاس الأنجاس ديارنا ، قادمين إلينا برجسهم

وأوثانهم.. التزمت الحياد في مطعمي حذراً من بطشهم ، يروحون ويجيئون إليّ طالبين الطّعام ، مرّةً أحد قوّادهم أثنىٰ على ذوقي في إعداد وجبات الطّعام مع علوجٍ كانوا معه ، كان كثير التّرداد عليَّ ليأكل من طعامي اللّذيذ ، كما قال لي يوماً بصوته الخشن القويّ الّذي يشبه خوار البقر... ! ومرّةً كاد أن يقع بيني وبينه خلافٌ حادٌّ في الرّأي خفت بعدها من غدره وإجرامه.. حينها كان يجلس علىٰ الطّاولة لتناول الطّعام ويجلس حلوله علوجه بحرابهم وبنادقهم ، وزيِّهم التقليديِّ من عصور الجاهليّة الجهلاء وذقونهم الّتي تبعث الكآبة في النّفس ، طويلة مغبرّة من غير تهذيبٍ تتدلّىٰ علىٰ صدورهم بعشوائيّة تاركةً ذوائب مختلفة الطّول ، ويومها لاحظنا قشّةً صغرةً عالقةً في ذقن أحدهم ، فأشرت له أن ينزعها فمدّ يده مُستحثاً مكانها ، غامراً أصابعه الغليظة بين ثناياها ، استخرجَ القشّة ودفعها إليَّ وقال لي : مباركةٌ عليك هذه القشّة ، فاحتفظ بها جيّداً ستدفع عنك شرّ الشّيطان اللّعين.. ! يقول العجوز : قلت في نفسي : حينها : أنت هو الشّيطان بعينه.. ! ثمّ حملق بشدّةٍ في وجهي ، قاطباً حاجبيه كغولٍ مجروحٍ بسبب عظمةٍ في لسانه ، صائحاً بصوتٍ مرتفعٍ ، فاتحاً فاه علىٰ مصراعيه ، حتىٰ بدت أسنانه الكبيرة المصفّرة أشبه بأسنانِ تيسٍ أجرب ، وقال لي : لماذا أنت حليق الذّقن أيّها الكافر... فابتسمت له بسخريّةٍ وأجبته : أنا كافر.. لمجرد أنّي حليق الذّقن.. أنا أصلي وأصوم وحججت إلىٰ بيت الله الحرام...

وأتجنب المحرّمات الّتي نهىٰ الله عنها . . ثمّ رفعت صوتي بوجهه : تقول عنّي كافراً ، وأنتم هدمتم المساجد الّتي يُذكر فيها اسم الله . . ! قلْ لي بربك : أليس حراماً ما قمتم به أوّل وصولكم إلىٰ هنا . . ! فجّرتم جامع الرّقّة القديم الكبير الّذي شُيدّ من عصر الرّشيد ، وقمتم بتفجير مقام كبار الصّحابة ، عمار بن ياسر ، وأويس القرني ، وأُبيّ بن كعب ، واستخدمتم حجارتها الأثريّة دروع لمتاريسكم المنصوبة في جميع أنحاء الرّقّة . . ! فَبُهت الوغد وحملّق عينيه في وجهي وهو يزفر كالوحش الّذي قطع ذنبه ، ثمّ صاح قائلاً : أنتم كُفّار تعبدون هذه القبور ؟ . .

ومن العجيب المضحك أنّ معنىٰ العبادة لا يدركه هذا الوغد الحاقد ، وخوفاً من حدوث أيّ مكروهٍ لي ولولدي امتنعت عن مجاراته في الحديث ، متذرّعاً بانشغالي في إعداد وجبة الطّعام . . . وبعد شهرين جاء إليّ مع ثلاثةٍ من علوجه ، وطلب منّي إغلاق المطعم في الحال فقلت له : ولماذا أغلقه . . قال : لتذهب معنا في الحال ، ستعمل لدنيا طبّاخاً . . !

فقلت : إنّني لا أستطيع ترك محلّي ، لقد تعودت على العمل فيه منذ سنين طويلة ، ولا أقدر علىٰ العمل خارجه . . !

عندما سمعوا منّي هذا الكلام ، قام أحدهم بتوجيه فوهة البندقية إلىٰ ولدي أما الآخر ، فأستلّ سكيناً كبيراً وصار يلوّح بها أمامنا . .

فخفت علىٰ حياتي وعلى حياة ولدي الوحيد. . فأغلقت المحلّ ، وذهبت معهم. . ! فأنزلوني وابني في سردابٍ ، نزلنا إليه عدّة درجات تحت الأرض ، ويتألف هذا السّرداب من مطبخ كبيرٍ مجّهزٍ بجميع ما يلزمه من أدوات ومواد ، وخضار ، وفاكهة. . وإلى جانب المطبخ هناك أربع غرف كبيرةٌ أيضاً ، مع بهوٍ كبيرٍ فيه كراسي وطاولات لتناول الطّعام عليها من قبلهم. . ! وعلمت أنّه علىٰ مقربةٍ من السرداب ، تقع إحدىٰ معسكراتهم ويربط بينه وبين السّرداب خندق ظاهرٌ من الأرض ، كان زعيمهم التّيس الأجرب يروح ويغدو من خلاله مع بعض علوجه ، وفهمت فيما بعد أنّهم يلقبونه « بأبي النّضر النجديّ » كان في أحد غرف السّرداب مجموعة من النساء الأسيرات المسبيّات. . سبيّ أبي النّضر. . كان منهنّ من خُصّصنَ لمساعدتي ، ومن بينهن مريم. . . عندما أتوا بها ، شدّها أبو النّضر من يدها بقوّة ودفعها نحوي قائلاً لي : هوه. . أبو الحسن ، انتبه إلى هذه الغزالة ، ستصبح عمًّا قريب زوجتي. . . درّبها علىٰ طهي الطّعام ، وطريقة تحضير بعض المأكولات الشّهيّةِ. .

حَكَتْ لي مريم قصتها الأليمة . وكيف قتلوا زوجها وإخوتَه وأباه كما روت لي قصّة حبها معك يا سعيد. . !

قاطعه سعيد قائلاً : لقد أكثرت بالحديث معي يا عمّ :

« أبا الحسن » أنا يهمنّي مريم هل هي سليمةٌ . . ؟ وأين هي الآن . . ؟

تلعثم العجوز مرّة أخرىٰ . . وكاد ينطق بها علىٰ عجلٍ : « إنّها ماتت » ولكنّه أَحبَّ أن يمهّدَ لسعيد بالكلام الّذي يخفّف من غلواء الحزن ويبعث النّفس علىٰ الرضا بالمُصاب . . . فقال له : يا سعيد . . كُلُّنا ولدنا يوماً لنموت ، ولا يوجد كائنٌ من كان ، خلّد في هذه الحياة . . !

ـ أفهم من كلامك يا عمّ أنّها ماتت . .

ـ نعم . . وأوصتني قبل موتها بساعات قليلة أن أكتم عنك الخبر ، لأنّها كانت تعلم مدىٰ حبّك لها . . فخافت علىٰ مشاعرك . . !

ـ وجم صوت سعيد ، واغرورقت عيناه بالدّموع ، وأصابه مسٌّ من الصَّمت المثير للعبرات . . فبادره العجوز قائلاً :

ـ يا بنيّ . . ماتت ميتةً عظيمةً وشريفةً بعد أن فعلت ما يجب فعله وقتلت « أبا النّضر النجديّ » بيدها دفاعاً عن شرفها وعرضها من أن يدنّسه هذ التّيس الأجرب ، لقد جاء يوماً ، ووضع يده على رأسها وكبّر ثلاث تكبيرات . . علىٰ عادتهم في سبي النساء واعتدائهم على أعراضهن . . ثمّ قال لها : أصبحت زوجتي وحلالي . . . فقالت له كيف . . ؟ فأجابها مكشّراً عن أنيابه الدّميمة : نكاح الجهاد . . . يبيح للرَّجل أنْ يعقد على المرأة ولو كانت متزوجة بثلاث تكبيرات فقط . . ؟

فردّت عليه : ومن أباح لكم مثل هذا الزَّواج ، أستغفر الله العظيم من شرّكم المستطير أنتم شياطين ولستم آدميّين . . .

أدرك سعيد من فوره وهو يسمع كلام العجوز وهو يروي حوار مريم مع التّيس الأجرب أنَّ مريم كانت على درايةٍ كاملةٍ أنّهم شياطين . . الأنجاس حقًّا شياطين اعتدوا على شرع الله تعالى . . ثلاث تكبيرات وتصبح زوجته !! . . هي في الحقيقة تشويهٌ لصيحة النّصر « الله أكبر . . . » . . تشويهٌ للشرع الإلهي الحنيف الّذي وضع شروطا وأركاناً لعقد الزَّواج لا يصحّ بدونها . . ! ولو سألنا فقهاء الإسلام عبر التّاريخ ، وقرأنا ما صنفوه من موسوعات فقهيّة . . لا نعثر على هذه اللّفظة أساساً أو التّسَميْة ، نكاح الجهاد . . . وهي تشويهٌ لجهاد المقاومة من أجل رفع الظّلم وردّ حقوق الضعفاء المستضعفين في الأرض . . . ! حقًّا إنّهم زبانية مأجورين من قبل الغرب الحاقد ليس إلاّ . . ! ؟

إذاً . . . أصبح سعيدٌ على يقينٍ تامٍّ بموت مريم ، كما كان يشعر في قرارة نفسه من قبل . . . هي شهيدةٌ في سبيل العرض والشّرف ، ومقاتلةٌ شجاعةٌ فعلت ما فعلت وهي تعلم بالتأكيد أنَّ الموت سينزل بساحتها . . ! وذلك عندما دفعها التّيس قائلاً لها : ادخلي . . هيئي نفسك . . لتكوني وجبةً دسمةً هذا المساء ، لكنّها راوغت عليه ، وطعنته في أحشائه بخنجرٍ مُدببٍ كان في جعبته . . ! فمات لفوره

زافراً روحه النّجسة... فمريم أراحت البلاد والعباد من شرّه.. كمقاتلٍ جنديٌّ يدفع عن وطنه وأهله شرّ الأعداء في ساحات الوغىٰ.. !

بوركت يا مريم... بورك حبّك الصادق... وأنت تختارين لك مكاناً قصيّاً في سكّة الخلود تميّزاً لشجاعتك النّادرة... قطعوا رأسك وقطّعوا جسدك إرباً إرباً.. ! ثمّ حرّقوه.. كيف لا يعرف قبرك ، ليكون شاهداً حيّاً علىٰ جرائمهم وبشاعتها.. !

سعيد لم يذرف الدّموع بكاءً ونحيباً ، وإنّما حمل حزنه في قلبه ، وسارَ في طريقٍ ناهضٍ نحو السّماوات العُلىٰ.. معراج الرّوح وهيامها اشتياقاً إلىٰ روح مريم.. !

وبات يردّد علىٰ شفتيه وهو لا يدرك ما يجري من حول ، كالغائب عن الوعيِ تماماً :

مريم لم تمت ، روحها لم تزل عالقةً بروحي.. !

وبعد ثلاثةِ أيّامٍ من سماعه لخبر الفاجعة... قرّر السّفر إلىٰ دمشق في إجازةٍ طويلةٍ ، ليزيحَ عن قلبه ما ران عليه من صدأ السّنين.. ابن عمته يملك منزلاً صغيراً في أعلىٰ جادّة من حيِّ المهاجرين ، لا يسكنه أحدٌ وهو مجهّزٌ بكلِّ أسباب الرّاحة لاستقبال ضيفٍ عزيزٍ... طلب من ابن عمته مفتاح الشّقة ، فلم يبخل به عليه ، وبارك له ضيافته في دمشق ؟.. في مساء اليوم الأول من

وصوله إلىٰ دمشق ، جالَ سعيدٌ في بعض شوارع دمشق مستأنساً بأضوائها السّاحرة الّتي تبعث الغِبطة والرّاحة في النّفس ، في منطقة البرامكة وقف علىٰ باب إحدىٰ المكتبات . . مكتبة السّلام ، يجيل النّظر ملياً في عناوين الكتب المعروضة علىٰ واجهتها ، فكرّ في شراء كتابٍ « ما » لأنّه لا يستطيع تمضيَة فراغه من غير قراءة . . ! دخل إلى المكتبة ، استقَبلته فتاةٌ مشرقَةُ الوجه بابتسامة تنضح بالطيبة والسّماحة ، جالسةً وراء الطّاولة العريضة . . كانت الفتاة في بداية العقد الرّابع من عمرها تلبس حجاباً أبيضَ وسترة تغطي سائر جسمها كحليَّة اللّون . . عرف أنّها فتاةً لخلوّ أصابع يديها من أيّ إشارةٍ تشير إلىٰ أنّها متزوجة . . !

سلّم عليها بحرارة من غير مصافحةٍ . . فبادلته السّلام بألفاظ الإطراء والتّرحيب ، ذكر لها عنوان كتاب معروضٍ علىٰ الواجهة . . صور من التّاريخ . . . ! عندما قامت لجلب الكتاب من أحد رفوف المكتبة . . نظر على الطّاولة فوقع بصره على ورقةٍ بيضاء بخطٍّ جميل وعريض ، عبارة أثارت انتباهه وفضوله : شكراً لأنك في حياتي . . !

أدرك أن هذه الفتاة تمضي وقتها جالسةً وراء الطّاولة في كتابة الخواطر في أوقات خلوّها من الزّبائن الّذين يطرقون المكتبة لشراء ما يحتاجونه من كتبٍ علميّةٍ وثقافيّةٍ . . !

ناولته الكتاب قائلة له : مثل هذا الكتاب لا يشتريه إلاّ مَنْ تروق له دمشق ، وأكيدٌ تربطه بها ذكرياتٌ ومشاعرُ نبيلة . . !

ابتسم سعيد قائلاً لها : شكراً لذوقك . . . أبارك لك حدسك وفهمك . . ثمّ أشار بيده إلىٰ الورقة . . وقال : وهذه العبارة لا يكتبها إلا مَن يملك ثقافةً واسعةً ، وربّما مرّ بتجربةٍ قاسيّةٍ . . !

ولمّا سألها عن ثمن الكتاب . . قالت له : هذا هديّة . . لا أريد ثمنه كونك تَفِد إلىٰ مكتبتنا لأوّل مرّة . . . خاصّةً أنّك ـ كما فهمت ـ مثّقفٌ من العيار الثّقيل . . وظنّي أنّ نراك كثيراً في مكتبتنا بعد اليوم . . !

شكرَ لها حسن استقبالها ، وكرمها العلميّ والثّقافي الفياض بالودّ والاحترام ، أخذ الكتاب وخرج لتوّه ، قاصداً حيّ المهاجرين . .

وهو في الطّريق سائراً كعادته علىٰ رجليه . . ! متعلّلاً بنسائم الياسمين الدّمشقيّ ، الّذي يفوح عبقه رقراقاً . . ! تجلّت في خاطره بارقة العبارة الّتي قرأها آنفاً . . فجادت شفتاه بصوت خفيض واضعاً يده ناحية قلبه : شكراً يا مريم لأنك مررت من هنا . . شكراً لأنك دوماً في حياتي ، في المساء جلس علىٰ شرفة المنزل ذي الإطلالة السّاحرة علىٰ جميع أنحاء دمشق ، بدت دمشق بأضوائها السّاهرة كوشاح مطّرزٍ بخيوط الذّهب ، تنشر هيبتها التّاريخية كأقدم عاصمةٍ

في الدّنيا منذ بدء الخليقة إلىٰ يومنا هذا . . .

لاح له وسط هذه الأضواء طيف مريم ، ناهضٌ وجهها من الغيب المترع بلحافهِ الأبيض الرّقيق ، تخاطبه برأفةٍ وحنوٍّ شديدين :

حبيبي سعيد . . . لا تبتئس ولا تحزن . . لأنّني متُّ لأجلك ولأجل هذا الحبّ الّذي ما يزال يؤنسنا رغم بعد الفراق . . . فنحن نموت لنحيا من جديدٍ وكنْ على يقينٍ . . أنّي رأيت ما وعدني به ربّي حقّاً ، فهل وجدت ما وعدك به ربُّكَ حقّاً . . !

غاب خيال سعيدٍ فجأةً ، تصوّر أمام ناظريه ، رجال الفزع والغدر وهم يصبّون الموت على مريم صبّاً عارماً . . . وينهالون المرّة تلو الأخرىٰ علىٰ الجثّة الطّاهرة بسيوفهم وخناجرهم ، ويغرزون فيها سكاكينهم ، وآلاتهم الحادّة ، ويصبّون كلّ ما في نفوسهم من رغبةٍ في الانتقام والثأر . . . لظّنهم أنَّ ما قامت بفعله جريمةٌ فظيعةٌ . . ولكنّ مريم لم تقصد بقتلها تيسهم الغائم ، الإنتقام من رجلٍ حاول الاعتداء عليها وتدنيس عرضها فحسب . . ! وإنّما تقصد أن تضع نهايةً للرّعب والخوف ، ومصيراً فظيعاً للمجرمين الطّغاة . . !

أفاق سعيدٌ من غشيانه العاطفي والفكريّ ، علىٰ صوت الانفجارات القادمة من بعيدٍ . . ! أجال نظره نحو الأفق الممتدَّ أمامه ، رأىٰ ألسنة اللّهب تتطاير في الجوّ ناشرةً دخانها الأسود الكثيف . . . فالجيش يقوم بتطهير ضواحي دمشق وقراها المتناثرة في

الغوطة الشّرقية من آخر جحافل العصابات المسلحة ، وعلىٰ وشك أنْ يتمّ تحريرها من أيديهم بشكلٍ كاملٍ . . . لتعود دمشق واحةً غناءً ، تفيض عبقاً وعطراً . . !

ولكن عشقه الأزلي لدمشق ، أثار الغيرة في نفسه ، والخشيةَ على تاريخها العَتيّ أنْ يلوّث برجس الطّغاة المجرمين ، فتناول ورقةً بيضا ، وسطر فيها عشقه الدّمشقيّ العابق بعطر الياسمين . . . فكتب مقالاً تصدّر إحدىٰ صفحات جريدةٍ رسميّةٍ في اليوم التّالي :

« حافظوا علىٰ دمشق قِبلة الحبّ والخير والعطاء . . وعاصمة العروبة يوم أشرقت بصيحة السّماء . . منها اكتست البشريّة حُلَلاً جديدةً تنبض بأبجديات المحبّة عبر الدّهور والأزمان .

ومنها انطلقت المسيحيّة الأولىٰ في الآفاق ، تشّير بالفضائل المثاليّة وترضي دلالها في شباب الأرض . . . وعلىٰ الدّروب المؤديّة إليها سار الرّسل والأنبياء . . ! هكذا قَضَى الله لأعظم وأول عاصمةٍ في التّاريخ منذ بدء الخليقة إلىٰ يومنا هذا . . !

حافظوا علىٰ دمشق . . فهي الأمّ الحنون الرّؤوم تمدّ شرايينها في جذور الأرض . . وتغدق علىٰ العالمين عطفاً وحناناً . . فتهفوا إليها قلوب مجيّها من شرقٍ وغربٍ . . . ومن أرضٍ وسماء . . . والملائكة تدخل إليها من كلّ باب ، سلامٌ عليكم . . ادخلوا دمشق بسلامٍ آمنين . .

حافظوا على دمشق. . . عاشقة الله ، فمآذنها الشّامخة. . . تفتح ذراعيها نحو السَّماء ، مصافحةً المنهج والأفئدة الوالهة. . . والمتطلّعة إلىٰ توسّلٍ ورجاء. . . لا ينقطع مدده أبداً حتّى يرث الله الأرض ومن عليها. . .

حافظوا على دمشق. . كي تشرق شمس المحبّة والسّلام علىٰ الأرض الّتي باركها الله ، وليتلألأ القمر ، وحوله زهور الياسمين الّتي تعبق نسيماً عليلاً كبشارة خيرٍ على أهل الأرض جميعاً. . !

حافظوا علىٰ دمشق. . ولا تقطعوا شجرة اللّبلاب التي تتعربشُ ضاحكةٌ مستبشرةً ، علىٰ جدران السّطور المكتظّة بحمائم الشّوق والحنين في قصائد الشّاعر نزار. . !

نزار يناديكم. . . ويترجّاكم. . . مرّةً بعد مرّةٍ ، ألاّ تحرموه من القضامة الّتي ملأت جيوبهم منذ درج صغيراً في زواريب وأزقّة دمشق العتيقة. . . !

لا تحرموه أن يلبس قميصه الموشّىٰ بعناقيد العنب الشّامي. . . لا تحرموه أن يلبس قمصانه الّتي تفوح منها رائحة اللّيمون والزيزفون. . !

ها هو. . يخرج من قبره. . . يركض خلفكم أنّىٰ اتّجهتم. . . ليخبركم أنّه وجد عند ربّه ما وعده به حقّاً في الأرض المباركة الّتي وطئت جنباتها قدم النّبيّ الأميّ. . كي لا تلوثوا السّيف الدّمشقيّ

المرصّع بالذّهب. . . لا تلوّثوه بدماء الأبرياء والنّساء والشّيوخ والأطفال. . ! بل لينادي عليكم بأعلى صوته :

مأذن الشّام تبكي إذ تعانقني

وللمساجد كالأشجار أرواح. . .

ولا أخفي سرّاً على أحدٍ. . كثيراً ما أشعر أنّي أصبت بالفصام والهذيان فتعتريني الصّحوة الفكريّة والشّعريّة ، فأتقمّص شخصية الشّاعر نزار وألبس جبّة الشّيخ محيّ الدّين بن عربيّ ، وأهبط على سفح جبل قاسيون وأنادي في كلّ اتّجاه. .

يا أهل الشّام. . .

أنا عصفوركم الأخضر. . .

فأطعموني حبّة قمحٍ. . .

يا أهل الشّام. . .

أنا وردتكم الشّاميّة. . .

فضعوني في أوّل مزهريّةٍ. . .

يا أهل الشّام. . .

أنا قمركم المشرّد. . .

فتبرعوا لي بفراشٍ وبطانية صوفٍ. . .

لأنّني لم أنمْ منذ دهور. . .

حافظوا على دمشق.. فهي الفجر العاصف الّذي وقف في لحظاته الأولىٰ البطل صلاح الدّين الأيوبيّ ، مقسماً بالله العظيم ليُطهّرنّ الأرض الّتي باركها الله من جحافل الصّليبيين الحاقدين ، وليقطعنَّ دابرهم إلى الأبد ، وليعيدنَّ للمسجد الأقصىٰ البَهجة والحبور ، والفرحة والبسمة إلى كنيسة القيامة... وليقرعنَّ أجراسها بيديه مُبشّراً بقيامة جديدةٍ للسيِّد المسيح . ينشر خلالها المحبّة والسَّلام ، ويقرّب بين قلوب السَّالكين إلى الله.. !

الحقّ أقول لكم :

أجد نفسي ـ كثيراً كثيراً ـ أردّد مع فيروز أغنيتها العظيمة الخالدة أحبّ دمشق... هواي الأرّق..

وأجدني أردّد مع صوتها الملائكي العذب : يا دمشق.. يا دمشق.. فيحركنّي زلزالٌ من العشق نحو دمشق... يرتقي إلىٰ مصاف الهيام المقدّس فتهبني القوّة الرُّوحيّة ، أستشّف من خلالها المستقبل القريب من أطياف العالم الماورائي... ويأخذني في اللاشعور إلىٰ عتبات فرحٍ قريبٍ بإذن الله... تزداد فيه دمشق تألقّاً وسمّواً بين الكواكب والنّجوم... فتشدوا الشَّمس من جديدٍ علىٰ أوتار النّور المنبعث منها.. يا دمشق... ! يا دمشق.. !

* * *

المحتوى

كلمة لا بد منها 5

أنواءٌ وغيوم 7

اللؤلؤ يكمن في القاع 16

الحبّ بغتةً 26

مناجاة القمر 33

لغزٌ وحلمٌ 39

كم أنت رائعةً يا أمّي 48

أغاريد الفرح 56

سمّاعة الهاتف 63

رأسي يوجعني 66

الرسالة وقطرميز العسل 73

أفعىٰ.. ونهر 90

كآبة.. وحزن 100

بين نعجتين 106

أنتم... أيها الأشرار 130
حزنٌ في حلب 141
ويستمرّ الألم 153
مريم.. وداعاً 164
المحتوى 181